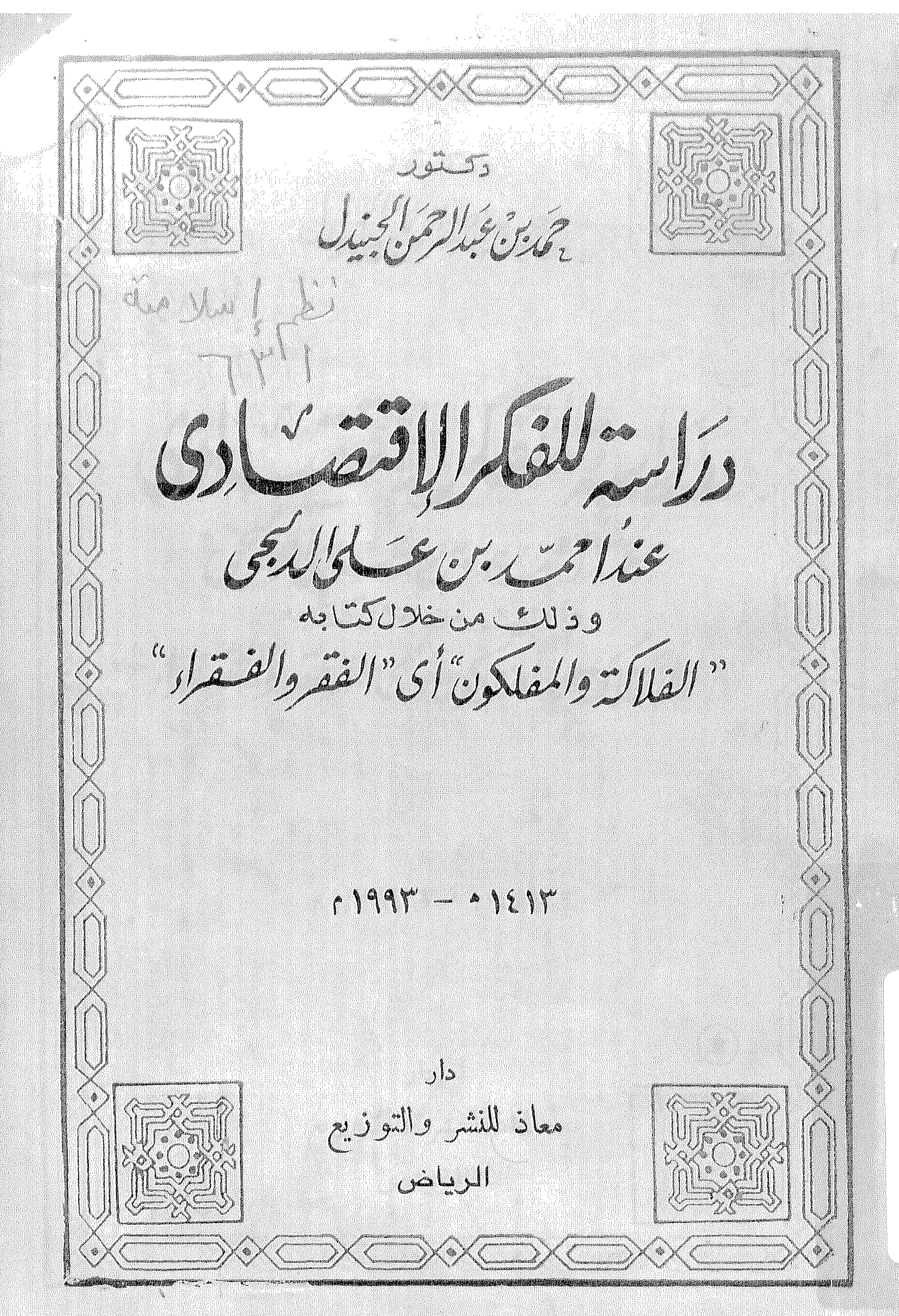


دكتور
حمد بن عبد الرحمن الجنيدل

دراسة للفكر الاقتصادي
عند أحمد بن علي الدلجي

وذلك من خلال كتابه

"الفلاكة والمفلكون" أي "الفقر والفقراء"

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار
معاذ للنشر والتوزيع
الرياض



دراسة للفكر الاقتصادي

عند أحمد بن علي الدلجي

وذلك من خلال كتابه

"الفلاكة والمفلكون" أي "الفقر والفقراء"

دكتور

حمد بن عبد الرحمن الجنيدل

الأستاذ المشارك بقسم الاقتصاد الاسلامى

بكلية الشريعة بالرياض

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

دار

معاذ للنشر والتوزيع

الرياض

ت: ٤٥٩٥٤٠٢ — ٤٥٨٦٠٢٧

دار الاتحاد العربي للطباعة
لصاحبها : محمد عبد الرازق
١٩ كنيسة الأرمن - شارع الجيش
تليفون : ٩٣٤٠٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ .

« صدق الله العظيم »

(سورة التوبة الآية ٦٠)

اهداءات ٢٠٠١
الدكتور/ القطب محمد طبلية
القاهرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وآله وصحبه وسلم . .

وبعـــد :

فإن الشريعة بحمد الله وافية بكل متطلبات المسلم فى كل زمن وأن علماء هذه الأمة بما رزقهم الله من التقوى والتبحر فى العلم وخاصه متقدميها وأرجو أن يكون ذلك الوصف فى متأخريها أقول أنهم برزوا فى مجالات كثيرة ومن بينها معرفتهم الجيدة والبصيرة فى الفكر الإقتصادى وإن لم يسموه بإسمه لأنه لم يوجد بعد « مصطلح هذا العلم وتسميته » وإن وجدت نصوصه ومبادئه . .

ولقد كان للفكر الإقتصادى الإسلامى أهميته من خلال ما سطره علماؤنا الأفاضل فى كتبهم تبعاً وأصالة ، استطراداً وقصداً . . فكان من واجبنا نحن المسلمين أن نبرز آراءهم النيرة الجيدة التى تمكث حبيسة بين دفات الكتب ويسرقها علماء الغرب والشرق وينسبوها لأنفسهم ظلما وعدوانا وما درينا بأن هذه بضاعتنا ردت إلينا وهم يعلمون يقينا أننا غافلون عن ذلك وأننا لاندرى أن فى كتب علمائنا شيئاً من الآراء الإقتصادية الجيدة المدعمة بالكتاب والسنة والأدلة العقلية المقنعة ، بل إنهم لايريدون أن نقرأ هذه الكتب خوفا من اكتشاف مصدرهم الحقيقى فى

المعرفة الإقتصادية ولكن المد الفكرى الإقتصادى الإسلامى والصحوة الإقتصادية عن علماء المسلمين جعلتهم يرجعون ويراجعون كتب علمائنا السابقين ليروا الكنوز التى تحتاج إلى إخراج وليروا العقول التى استنارت وقذف الله فى قلوبهم الكلمة الصادقة والشاردة الفذة . .

وكان من واجبى وأنا من اهتموا بالفكر الإقتصادى الإسلامى من خلال رواده الأفاضل علماءنا السابقين أن أسلك هذا المسلك وقد بدأته فى رسالة الدكتوراه فأشرت إلى الكثير من علمائنا وأخذت نماذج من علمهم فى الإقتصاد وكان من بينهم أحمد بن على الدلجى الذى كتبت عنه ما يقارب صفحتين أو ثلاث فشدنى هذا الكم اليسير من الكتابة إلى أن أدرس كتابه « الفلاكة والمفلوكون » أى « الفقر والفقراء » من الوجهة الإقتصادية وإلا فالكتاب ذخيرة كاملة فى أكثر من علم ففيه قبضة جيدة من تاريخ التشريع وفيه آثار من علم التاريخ نفسه وفيه تراجم مفيدة بل إنها تشكل أكثر من نصف الكتاب وفيه تحليل فلسفى جيد لأمور أخرى لا تتعلق ببحثى الذى أكتب مقدمته الآن فقصرت دراستى هذه عن أفكار الدلجى الإقتصادية ووقفت من الدلجى موقف القارىء المتأمل والناقد حسب استطاعتى مبديا وجهة نظرى منتصراً للحق ما استطعت ولا أدعى فى بحثى هذا أننى قدمت شيئاً ذا أهمية ولكن أدعى أننى فتحت طريقاً لدراسة الدلجى من ناحية فكره الإقتصادى وحبذا لو أن الباحثين أو قسما منهم تفرغوا بعض الوقت لدراسة بعض الكتب المتقدمة على هذا النحو إذن تبين سبق علمائنا رحمهم الله فى كل الميادين ولا نكشف لأبنائنا المسلمين فضل السابقين ولدخل الفكر الإقتصادى بكامله ضمن تاريخ الفكر الإقتصادى بل كان مقدمة له وعنوانا بل كان مهيمنا عليه لأنه مستمد من كتاب الله وسنة رسوله . .

وهذه المقدمة فى الواقع قد تفصح عن نتيجة هو أن الدجى وأمثاله نسيناهم نحن المسلمين فأخشى أن يتسلط أبناء الغرب الكافر ويثوروا على فكرهم فأما أن يكتبوا عنهم كتابة فاسدة حاقدة كعادتهم وأما أن يسرقوا ماعندهم من علم ويدعوه بهم وهذا ماحصل بالفعل ..

وأرجوا فى الختام أن تكون فى هذا البحث مع مابذل فيه وقت وجهد فائدة وإلا فالسماح من الغلط فكلنا معرض لذلك . .

والله الموفق والهادى سواء السبيل ؟

دكتور
حمد بن عبد الرحمن الجنيدل



بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل للبحث

حياته :

أحمد بن على الدلجى[1] لم يعرف تاريخ ميلاده إلا أن المؤرخين له ذكروا تاريخ وفاته سنة ٨٣٨ هـ ثم قالوا إن عمره فى السبعين ظناً حين توفى فيكون مولده على وجه التقريب بسنة ٧٦٨ هـ تقريباً[2] . .

وحياته الخاصة لا يعرف عنها إلا القليل ونذكر من أهم صفاته الخلقية مهارته فى الفهم وصحة عقله وذهنه[3] ، ونسب إليه عدم التدين حتى رمى بالزندقة وأهدر دمه عدة مرات بفتوى شيخ من مشايخه[4] . .

تولى وظيفة الشهادة وهى وظيفة هامة فى عصره وفى العصور السابقة له وتدل على فضل من يتولاها وقوة شخصيته ، وقد هيأت له الوظيفة فرصة الشهرة والوصول إلى الغنى[5] .

---

(١) نسبته إلى دلجة من مدن مصر السابقة .

(٢) انظر الدارس فى أخبار المدارس فهو أول من ترجم له حسب اطلاعى ج ١ ص ١٤٧ .

(٣) على عكس ما توقعه الأستاذ الدكتور محمد صالح فى مقاله « الفكر الاقتصادى العربى فى القرن الخامس عشر الميلادى فقد وصفه ببلادة الذهن وتخلفه عن زميله ابن خلدون والمقريزى وكتابه الفلاكة يدل على نباهته وذكائه . .

(٤) نفسه ج ١ ص ١٤٧ وشيخه الذى حكم بإراقة دمه هو ابن حجى . .

(٥) نريد أن نصحح هنا من مقال الدكتور محمد صالح السابق ذكره من وصفه بالفقر فلم يكن فقيرا بل كان غنيا مبدداً المال .

وتولى مشيخة الخانقاه خاتون بالشام وتولى وقفها ولكن إشرافه عليها كان سيئاً وغير حميد فكان لخفة دينه يؤذى الصوفية المقيمين بها ولم يعجبه الوضع فى هذه الخانقاه فباعها نظير مبلغ جيد للقاضى ابن عجلون ، ورجع إلى مصر مرة أخرى ليتولى وظيفة الشهادة مرة أخرى عند القاضى الحنبلى ويبدو أنه لم يعش طويلا حيث توفى بعد رجوعه بمدة قصيرة(١) . وتولى قبل وفاته التدريس بأدم مدرسة هى مدرسة الاتابكية(٢) . . كما تولى التدريس فى الجامع الأموى . وقالوا أن من أبرز صفاته أنه كان منهمكا بالناس شديد السخرية والاستهزاء بهم . .

(١) الدارس فى أخبار المدارس للنعيمى ص ١٤٨/١ . .
(٢) انظر تاريخ هذه المدرسة فى كتاب المدارس ص ١٤٣/١

حالة مصر الإقتصادية فى عهد الدلجى

عصر المماليك الجراكسة :

خلصت مصر للمماليك الجراكسة فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى الثامن الهجرى وظلوا فى حكمهم مائة وخمسة وثلاثون عاما وكانت تسود بينهم روح التضامن والعزم على الاحتفاظ بأكبر نصيب من الجاه والثروة ولا يصل الأمير للحكم إلا إذا حسب حسابا لهؤلاء الأمراء وما لاهم وبث بينهم روح العداء والتنافس . .

وقد عانت مصر آلاما وتحملت مظالم مغارم بسبب تقاتل هذه الشيع المختلفة فى الشوارع والأزمة وانطلاق سراح رجال العسكرية يعيثون فى الناس لايرعون حرمة مما أفضى إلى سيادة الذعر وعدم الطمأنينة بين الناس وكان المماليك من الأجانب الذين غلظت أكبادهم وقست قلوبهم فتجردوا من كل عطف وإشفاق نحو الأهالى ولم يكونوا كلهم من الجراكسة بل كان فيهم خليط من اليونان والترك ، ولم يكن العساكر أحسن حالا من رؤسائهم فكانوا مثلهم ينتهكون الحرمات حتى كان الفلاحون يخشون جلب ماشيتهم وحاصلاتهم إلى أسواق القاهرة حتى لايصادروها هم بأنفسهم أو أعوانهم بسعر إلزامى لتخزينها فى القصور ، وكانت الحكومة غير مهيبة الجانب فى أطراف المملكة ، وكان العدل يباع كالسلعة يختص به أكبر مزيد .. وانتابت البلاد من آونة لأخرى الأوبئة والطواعين والغلاء بسبب قصر مد النيل..

سلطان تقى ولكن ؟

لقد وقعت أشنع المظالم الإقتصادية فى عهد السلطان المؤيد وهو العصر

الذى عاش فيه الدلجى - مع اتصاف السلطان بالعلم والتقى والدين والبعد عن حب الظهور والميل إلى التقشف ، نقول ومع ذلك وبرغم هذه الصفات الحميدة كان قليل الحول أمام وزرائه والمواطنين ولكنه مع حبه لنصر المظلومين لم يفعل شيئاً . .

الدلجى شاهد عصره :

هكذا عبر الدلجى وهكذا خرج كتابه منبئاً عن هذا العصر وكأنه ثورة اجتماعية رمزية من هذا المؤلف وكأنه تسلية وعزاء لهؤلاء المفلوكين « الفقراء » والمغلوبين على أنفسهم . .

ليس الدلجى وحده فى مصر :

بل هناك « المقريزى » صاحب الخطط وكشف الغمة برحمة الأمة الذى درس فيه والظاهرة الإقتصادية والكوارث المحيطة بمصر فى عهده فى مصر وقبل عهده . .

مؤلفـــاته

شهد العلماء ببراعته وفصاحته وقوة حجته ، ونرى أن من يتولى الشهادة عند القضاة فقد وصل إلى مبلغ جيد من العلم والشهرة فى العلم وقد تذهب بالمذهب الشافعى بحسب الراجح لدينا — لأنه تولى التدريس بمدرسة من مدارس الشافعية وهى المدرسة الاتابكية ولأنه درس الفقه على شيخه ابن حجى سنة ٨١٨ هـ وهو شافعى ولأنه أخيرا ألف فى الفقه على المذهب الشافعى . ولهذا ذكر العلماء له عدة مؤلفات أثنى عليها العلماء ولم يصل إلينا منها سوى كتابه « الفلاكة والمفلوكون » . .

١ — فوائد على شرح البخارى . . ولم يذكر مترجموه أى شرح هذا ، ولكن يظهر لى أنه فتح البارى لأن مؤلفه الامام ابن حجر من أشهر علماء الشافعية هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أن ابن حجر يسبق عصر الدلجى بقدر يسير فهو أقرب العلماء إلى المؤلف ثم أنه أخيرا من أطول شروح للبخارى . .

٢ — مختصر تكلم فيه على قول الناس فلان هالك وهو فى علم رجال الحديث ونقدهم وفيه فوائد كثيرة (١) . .

٣ — الجمع بين الوسيط والخادم للأذرعى وهو فى الفقه الشافعى وحسب علمى ليس هناك كتاب باسم المتوسط بل الذى أعرفه كتاب الوسيط للامام الغزالى رحمه الله فى الفقه . يقول العلماء قد بانت براعته فى هذا الكتاب وقوة عارضته وقد اقتناه شيخه أبو الفضل ابن حجى حتى وجد ضمن مكتبته بعد وفاته قال ذلك الامام أبو الفضل التبريزى وأنه

---

(١) ذكر ذلك الدارس للنعيمى ص ١٤٩/١ .

اشترى منه مجلدات أربعة من تركة الشيخ المذكور وهذا يدل على فضل الرجل الزائد » . .

٤ ــ الفلاكة والمفلوكون :

وهو الذى نحن بصدد دراسته . . والفلاكة والمفلوكون أى الفقر والفقراء ، لماذا سمى الدلجى كتابه : الفلاكة والمفلوكون ؟ :

ــ حول التسمية : قال الدلجى فى مقدمة كتابه المفلوك وفى لغة الأعاجم يريدون بها (الرجل غير المحظوظ المهمل ـ بفتح الميم ـ فى الناس لاملاقه وفقره » (١) . .

ولم ترد فى صحاح الجوهرى ولا فى القاموس للزيدى .

ــ ولكن مع ذلك يرى الدلجى : أن هناك قربا بين ما فى القاموس من قوله « فلك تفليكا إذا لج فى الأمر فانه يمكن أن يجعل مصححا لهذا الاستعمال وبيانه أن اللجاج لازم للاملاق فانه يلزم من الاملاق وعدم الحظ اللجاج فيكون من باب اطلاق اللازم وإرادة الملزوم(٢) ..

ــ والدلجى يرد على اختياره هذا بقوله : هو مع ما فيه من التكلف مردود بأن فعل تفعيلا بالتضعيف لا يصح أن يكون اسم المفعول منه بزنة مفعولا . .

ــ يقول الدلجى ــ والذى نراه . أنه مأخوذ من الفلك الذى هو

---

(١) ص ٤ من الكتاب .
(٢) ص ٤ من الكتاب .

جسم محيط بالعالم فكأن الفلك يعارض غير المحظوظ فى مراده ويدافعه عنه (١) . .

لماذا اختار الدلجى « الفلاكة » دون الاملاق أو كلمة الفقر ؟

يجيب الدلجى على هذا السؤال بقوله أن الألفاظ الثلاثة الاملاق والفاقه والفقر ونحوها نص صريح فى مدلولها بخلاف لفظه « الفلاكة » والمفلوك فإنه يتولد منها بمعونة القرائن معان لائقة بالمقامات على كثرتها وتفاوتها (٢) . .

١ — وماذا فى الكتاب ؟ :

لقد اتبع الدلجى بحق فى بحثه هذا المنهج العلمى الدقيق للبحث مستخدما المشاهدة والبراهين الاقيسة والاستقراء فلم يثر قضية وتركها مجرد دعوى بلا برهان وإثبات . .

٢ — عن الكتاب والكاتب :

وقد تجلى فى أسلوب الكتاب خلق العالم تواضعا وعرفانا بقدره وحدوده وإمكاناته فهو لم يدع أنه حقق الكمال وأصاب كبد الحقيقة فى كل ما قاله ولكنه بعكس ذلك يقول : « وأنا أعتذر عما لا يوافق الغرض ولا يصيب الغرض »(٣) وفى آخر الكتاب يقول « هذا آخر ما تيسر لى كتابته فى هذا الغرض مما سهل ومما حضر وفى النفس من معاودته وبسط القول فيه »(٤) . .

---

(١) ص ٤ من كتاب الفلاكة والمفلوكين للدلجى .

(٢) ص ٤ المرجع السابق .

(٣) ص ٢ من كتاب الفلاكة والمفلوكين .

(١) ص ١٤٤ من المرجع السابق .

٣ — مجمل الكتاب :

الكتاب يتناول موضوع الفلاكة — الفقر — وأوضاع المفلوكين — الفقراء — بمعنى أنه يتحدث عن قلة الحظ الدنيوى وما يتسم به صاحبه والأسباب التى تجعل من هؤلاء أغلبية الجنس البشرى ..

فتناول : بعد تحدثه عن سبب تأليف الكتاب تناول تحديد معنى الفلاكة والمفلوكون ثم بعد ذلك فصل القول فى دحض الشبهة والتعللات التى يتعلل بها المفلوكون للابقاء على فلاكتهم فلا عذر ولا حجة للمفلوك فى التعلق بالزهد والتوكل لترك الأسباب والاملاق فى العيش ..

وبعد ذلك تحدث عن الآفات والنتائج السيئة التى تنشأ عن الفلاكة ثم حاول أن يرى الأكثر لصوقا بالفلاكة فذهب إلى أنهم العلماء ثم عقد فصلا لبيان أسباب الفلاكة وفصلا آخر بين فيه استلزام الفلاكة المالية للفلاكة الحالية المعنوية ..

٤ — الدلجى كان أحد المنظرين لعلم الاقتصاد والدليل على ذلك :

إذا سلمنا بأن العلم إما وصف لشىء قائم أو تفسير أو تحليل له من حيث جذوره وأسبابه ونتائجه أو توجيه لهذا الشىء الوجهة التى يراها الباحث ..
أقول : إذا سلمنا بذلك — وهو مسلم به لدى غالبية العلماء — من أن أى علم له وصف وتحليل وتوجيه ..

فان الدلجى بهذا الكتاب الصغير الذى سماه هو بنفسه « مسودة » :

و « أنموذجيا » و « برنامجا » وهذه عبارته : « فدونك مسودة أو

نموذجا أو برنامجا أو فتحا لباب عسى أن يلج فيه من حركة الله على ذلك »(١) ..

فقد جمع الدلجي في بحثه هذا بين النواحي الثلاثة للبحث العلمي .. وهنا نتناول بعض المسائل التحليلية والنظرية التي تناولها الدلجي والتي تحتل أهمية كبيرة في علم الاقتصاد مما يعني أن الدلجي كان أحد المنظرين الأوائل لعلم الاقتصاد سابقا بقرون عدة آدم سميث وتلامذته ونظرائه . ونشير إلى نماذج من ذلك :

(أ) ظروف الطلب وعلاقته بالعرض : « التخصص وتقسيم العمل » :

يذكر الدلجي قاعدة إقتصادية أو قانونا إقتصاديا يتناول التخصيص وتقسيم العمل أو ظروف الطلب أو تطور الصناعات وتقدمها أو تفاوت البلاد في الحرف والصناعات حيث يقول « وقاعدة الحرف أن موجوديتها وكثرتها ومهارة أهلها يدور مع التمدن والحضارة فكلما ازداد القطر تمدنا وحضارة ازدادت الحرف إحكاما ومهارة .. فلذلك لا تجد في القرى من المصنوعات ما يوجد في المدن ولا في صغير المدن ما يوجد في كبيرها . (لما أن رواج الحرف وتفوقها هو سر موجوديتها وأحكامها لأن الناس لا يضعون سلعهم حيث لا تقبل أو لا تنفق وكبر المدينة وكثرة أهلها يستلزم النفاق لاحتياج الناس واختلاف أغراضهم وهممهم احتياجا على البدل والتناوب إلى المصنوعات — واستلزام ذلك لحكم البدلية والنوبة عدم الشعور والخلود واقتضاؤه للنفاق لأن توزيع المجموع مع الكثرة على البدل والنوبة مستلزم لذلك لا محالة »(٢) ..

(١) ص ١٤٤ من الكتاب .

(٢) ص ٤٨ من الكتاب .

— هذا تحليل إقتصادى دقيق لعلاقة العرض بالطلب ولدور القوة الشرائية والسيولة وأحجام السكان فى تزايد الطلب على السلع . كذلك فهو من جهة يبرز دور المنفعة فى إضفاء قيم السلع المختلفة وهو فى ذلك يعمق ويؤكد ما قاله معاصرة العالم الاجتماعى « ابن خلدون » فى مقدمته .

٢ — قدم قاعدة أو قانونا يكشف عن علاقة الدخل بالانفاق الاستهلاكى:

مبينا أنه كلما زاد الدخل زاد الاستهلاك وهذه عبارته : « وأيضا يقال على وجوه المعاش الثلاث أنه كلما تجدد للانسان دخل حدد له صرفا . . أما للمباهاة أو إفراطا فى الشهوات أو خوفا من سوء القالة أو إكراه مبغض أو لتجدد أمور فى صرفه »(١) . .

أى أن الاستهلاك متغير تابع للدخل وهذا ما أكدته النظرية الاقتصادية الحديثة على يد كينز ومن بعده . ويضاف إلى ذلك أن الدلجى بين أن العوامل المسؤولة عن زيادة الاستهلاك بجوار الدخل أنها البدائل الاجتماعية والعوامل النفسية وعوامل أخرى كالمباهاة والترفيع على الأمثال وهناك الاستهلاك الترفى وهناك الخوف من الرمى بالنجل . .

أفلا يكون الدلجى بذلك قد سبق كينز ودوز نبرى وغيرهما من قادة النظريه الاقتصادية الكلية بقرون عديدة . .

---

(١) ص ٥٥ من الكتاب .

وقفة تقويم للدلجى

لاشك أن الدلجى بهذا الكتاب صغير الحجم قد أسهم إسهاماً كبيراً فى الدراسات الإقتصادية ويمكن التعليق على الفكر الإقتصادى للدلجى فيما يلى :

أولا : الكتاب من حيث موضوعه الأول من نوعه :

الدلجى رائد من رواد التنمية : وهو دراسة فى الفقراء والفقر يعد الأول من نوعه ـ على حد علم الباحث ـ فلم يسبق الدلجى بكتاب متكامل يتناول هذا الموضوع لامن علماء المسلمين ولا من علماء الشرق والغرب أى أنه بذلك يعتبر رائداً من رواد علم التنمية والتخلف ويكفى أن نعلم أن هذا المجال لم يطرق للبحث العلمى الجاد فى الغرب إلا فى النصف الثانى من القرن العشرين . .

ثانياً : الكتاب من حيث معالجته للمشكلات المثارة :

نلاحظ أن الدلجى قد اتخذ منحى معينا فى تناوله لهذه القضية « قضية الفقر والفقراء » فقد نظر إلى الفقر والفقراء فهى مشكلتهم نشأت بأيديهم ومن ثم فهم مسؤولون عنها ـ بيد أن الحق أنه ظاهرة اجتماعية من صنع المجتمع أو هو من صنع المسئولين والأغنياء ولو نظر الدلجى هذه النظرة للموضوع لجاءت المعالجة مختلفة والنتائج جد متباينة بل الثمرة أعمق . . ثم أنه فى ذلك قد لايتمشى مع قوانين المنهج الإسلامى فى نظرته للفقر والفقراء ـ كما قدمنا ـ فى دراستنا فى ملاحظاتنا التى طرحت عن أسباب الفقر وتبين أن هناك أسبابا خارجة فى جملتها عن المفلوكين بيد أنهم قد يشاركون فى

ذلك إذا بدا منهم البطالة والخمول والتوكل المزعوم الذى فهموه . .

يضاف إلى ذلك تناوله لعلاقة العلم والعلماء بالفلاكة والغنى وأنه فى عصور الإسلام الأولى عصور العلم والمعرفة والإزدهار العلمى كان وراء ذلك عامل اقتصادى وضمانة المكافآت والجوائز التى كان يتلقاها العلماء وقد بينا فى الرد عليه أن هذا مجاف للحقيقة . . مع التسليم بأهمية مواقف الحافز والتشجيع العلمى لازدهار العلم والعلماء ولكنها عوامل ثانوية جداً لا يهتم بها العلماء كثيراً . .

ثالثاً : هل العوامل التى أثارها الدلجى كمسببات للفلاكة هى حقاً عوامل للفقر والفلاكة ؟ . .

نستطيع أن القول بأن نعم بل ونقول أكثر من ذلك أن هذا يعد أجود فصل قدمه الدلجى فى كتابه وبه فقط يمكن اعتبار الدلجى رائداً من رواد علم التنمية الإقتصادية . .

وتفصيل ما أجملناه :

أن الدلجى تناول مجالات النشاط الإقتصادى ومصادر الكسب مصدراً مبيناً مدى ما يحيط بكل مجال من أمور تجعله أبعد من أن يحقق لصاحبه غنى وثروة وهو فى ذلك كله قد اكتشف لنا القوانين والنظريات والقواعد التى لها خطورتها فى عمليات التقدم والتنمية . .

فما ظننا برجل يعيش فى القرن الثامن الهجرى « الرابع عشر الميلادى » أى فى الوقت الذى كان الظلام يخيم فيه على أوربا وهو ما سمى بمصطلح العصور الوسطى نقول ما ظننا برجل يقول « إن توفر القدر الكبير من

رأس المال ـ السيولة ـ شرط لنجاح النشاط التجارى حتى يجابه به التاجر مختلف الحالات من الرواج والكساد . . ويقول : «كما أنه محتاج إلى خبرة ودراية ومعرفة على درجة عالية حتى يستطيع أن يمارس نشاطه التجارى بكفاية وفعالية . .

وأن الواقع يصدق ذلك ويؤكده :

وللسياسات الإقتصادية والإدارية دوراً : حاسماً فى نجاح العمليات الإقتصادية وإخفاقها . .

أليس هذا هو ما نراه اليوم رأى العين فى دنيا العالم المتقدم على حد سواء ؟ ؟

إن الدلجى بذلك يرتقى بالفكر الإقتصادى درجات حيث يدخل عناصر غير إقتصادية فى صلب عمليات الإنماء وهذا ما أخفق فيه الفكر الغربى ردحاً طويلا من الزمن ولما يزل بعد إلى حد كبير . .

والعجيب أن الدلجى قد عمم هذا العامل على كافة مجالات النشاط الإقتصادى والتجارى والصناعى الخ . .

يضاف إلى ذلك إدخاله عامل القيم والأنماط الإجتماعية كعامل . حاسم فى إنجاح أو إفشال النشاط الإقتصادى مما لم يلتفت إليه إلا فى العصر الحاضر . .

لنسمع الدلجى يقول « ثم جهات المعاش الثلاث مفتقرة إلى التعاون والتناصح وقد انقطعا من كافة البشر أو عامتهم لاتساع موجبات التباغض والتحاقد لكثرة مقتضيات التحاسد »(١) . .

---

(١) ص ٤٠ من الكتاب .

إذن لابد من صلاح البيئة والجو الإجتماعى لضمان نجاح عمليات التقدم :

ومعنى ذلك أنه أدخل منذ وقت مبكر جداً فى صلب نظريته التنمية الإقتصادية عناصر أخرى خارج النطاق الإقتصادى وهو بذلك توصل لما يقوله علماء التنمية اليوم بكل أسى وحسرة من أن من أسباب إخفاق نظارية التنمية الحديثة خلوها من العناصر غير الإقتصادية . .

« ولأول مرة » ثم إن الدلجى وربما لأول مرة فى التاريخ الإقتصادى يشير إلى تواجد نوعين من الأعمال أعمال إقتصادية طبيعية من زراعة وتجارة وصناعة وأعمال غير طبيعية يقوم بها بعض الناس بهدف الكسب والحصول على الثروات والدخول ويضرب الدلجى لهذا النوع أمثلة كثيرة وعديدة رابطاً لها ربطاً مباشراً واضحاً بالآثار والظواهر الإقتصادية وبين أن شيوع مثل هذا الكسب يعتبر أحد العوامل المسؤولة عن شيوع الفلاكة - الفقر - من النوع البشرى . .

والدلجى بهذا يبذر البذور الأولى للفكرة الإقتصادية التى عاشت فيما بعد على يد علماء الإقتصاد الغربيين من التفرقة بين الأعمال المنتجة والأعمال غير المنتجة مع وجود فوارق لاتخفى على من له صلة وثيقة بعلم الإقتصاد . .

رابعاً : وللقارىء الكريم ملاحظة نثيرها نيابة عنه :

فقد يلاحظ القارىء الكريم أننا فى بداية بحثنا أشرنا إلى أن الدلجى قد أرجع المسؤولية على الفقراء أنفسهم دون أن يحمل المجتمع أو غيره أية مسؤولية فى ذلك واعتبرنا هذا قصوراً وهفوة من الدلجى ، لكننا عند مناقشة ما قدمه الدلجى من عوامل وأسباب الفقر ، فإنه يستنتج القارىء للأسباب أنه ذكر عوامل أخرى ليست من عمل الفقير ولا حيلة له فيه

وهذا يمثل تناقضاً مع ما سبق أن أشرنا إليه . . ونحن نتفق مع القارىء فى تلك الملاحظة حيث أن معظم العوامل التى ذكرها الدلجى لا ترجع إلى المفلوك نفسه بل ترجع كما تبين إلى النظام والمجتمع والأمور الطبيعية كعوامل الجو والمناخ والكوارث . .

ومهما يكن من أمر فإن الدلجى وإن كان ذلك يعتبر منه هفوة منهجية إلا أن تناوله لهذه الأسباب وتحليلها هو فى حد ذاته عمل طيب وجيد بغض النظر عما قد يكون فيه من معارضة لما سبق أن قرره . .

وقفة حـــول التراجم

نتحدث مع الدلجى عند تراجمه للعلماء التى اختارها وقـــد حصرها فى العلماء مفلوكين والواقع أننى بقراءتى للتراجم وادعى بأنهم التراجم وادعى بأنهـــم :

(أ) فى التراجم بعد واقع ما هدف له الدلجى :

فمثلا قضية الزهد : اتصف العلماء فى أغلبهم الذين ذكرهم بالزهد والتقلل من الدنيا ومع ذلك سماهم فقراء مفلوكون .. فإذا كان وصفهم بأنهم فقراء من باب الفقر الاختيارى فذلك نوافقه عليه أما أنهم فقراء لأنهم لم يجدوا بدأ من الفقر فهذا موقف سبق الرد عليه .. ونذكر منهم الخليل ابن أحمد الذى وصفه بقوله / كان متقللا من الدنيا صبورا على العيش الخشن الضيق وهذا يدل على زهده وورعه مع أنه لو أراد الغنى والكسب والطول لحصل عليه ..

الامام الترمـــذى : لم يكن فى الشافعية فى وقته أرأس منه ولا أورع وكان من التقلل على حال عظيم .... إلخ حديثه عنه[1] ..

ابن مالك النحوى[2] : انصرافه عن الدنيا ، ومن باب الزهد والورع ولا ملازمة بين الزهد والفلاكة ...

واقرأ ترجمة « المازنى »[3]..

---

(١) صفحة ٦٦ من الكتاب .

(٢) ص ٧١ من الكتاب .

(٣) ص ٧١ منه .

تراجم أخرى متناقضة :

أولا : الغنى(١): بل أن الدلجى نسب الفقر والفلاكة لعلماء اشتهروا بالغنى وقد أثبت هذا بنفسه فى ترجمتهم :

(أ) كيحيى بن أكثم : فإن ترجمته تشهد بضد ماقصده المؤلف(٢)..

(ب) خضر الكردى: له خطوة عند السلطان يزوره السلطان فى الاسبوع مرتين(٣): والسؤال هل هو سيء الحال مفلوكا ؟

(ج) الحريرى : شهرته بالغنى ولا تخفى على الدلجى فكيف أدخله ضمن المفلوكين ..

(د) البدر التسترى : ثروته طائلة زائدة(٤) .

(هـ) ابن طارق : من التجار(٥) .

ثانيا : صفات أخرى :

(أ) ترجمة الضيف التلمسانى : هذا الصوفى الفاسق وترجمته مظلمة بل أن الدلجى لم يحسن حيث أدخله فى الترجمة مع هؤلاء العلماء الأفاضل بل هو من القوادين ومتشبهة إلى العلماء ادعاء فأين منه العفة وكرم الأخلاق..

(ب) القاضى الفرفيع : قلت بل هو قاضى ساقط فاسق لا علاقة له بما نحن فيه ..

---

(١) وقارن بصفحة ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) ص ٦٦ من الكتاب .

(٣) ص ٧٨ من الكتاب .

(٤) ص ٧٥ من الكتاب .

(٥) ص ٨٩ من الكتاب .

(ج) ابن هانيء الأندلسي : شاعر الخمرة والفلسفة وهو شاعر مجيد / هذا هو ما وصفه الدلجي به[1] . . فما علاقة هذا بالكتاب ؟

ثالثا : صفة البخل :

وقد أطلق الدلجي على بعض العلماء صفات كالبخل ثم أدخلهم ضمن المفلوكين فليس كل بخيل مفلوك — فقير — بل أن البخل قد يكون سببا من أسباب زوال الفقر ومنهم :

١ — مروان بن أبي حفصة[2] .
٢ — أبو جعفر النحاس[3] .
٣ — ابن الخشاب النحوي[4] .

ومع ذلك : فللقاريء أن يتتبع ما كتبه الدلجي من تراجم فهي تراجم مختصرة ومفيدة ولكن أساء في الواقع في ترجمة لمن ذكرنا نماذج منهم كالتلمساني والرفيع وابن هانيء وغيرهم . .

---

(١) ص ٧٦ من الكتاب .
(٢) ص ٨٠ من الكتاب .
(٣) ص ٨٥ من الكتاب .
(٤) ص ٧٨ من الكتاب .

موقف الفقراء من فقرهم

وإذا أسهب الدلجى فى حديثه عن الفقراء لم يشأ أن يستكمل سطور كتابه دون الاشارة إلى موقف الفقير من فقره معلقا من عنده ببعض الاشارات وغالبها الاشارة إلى ما يفرج همهم :

أولا — فبالأدب تارة لعدم قدرتهم على كتمان أسرارهم وذلك حيث يقول « وكذلك أيضا قلما يطيق الانسان استدامة أقوال تخالف مافى باطنه وإذا اتضح أن فى الأقوال تنفس وراحة وتلذذ وتنقيص من آلام الباطل وضحت الحكمة فى انتصاب المفلوكين خطباء وشعراء (١) . .

ثانيا — بترجيح الكمالات النفسية على الكمالات المالية حيث يقول: « ومرة يسلون أنفسهم بترجيح الكمالات المالية بالأدلة الخطابية والتشبيهات الشعرية »(٢) . .

ثالثا — ومرة يذكرون عوارضهم اللازمة بمقتضى الفلاكة ويصوغون لها أعذارا وحكمة وتشبيهات رائعة وكلمات فذة تنقيصا من قبح صورة الفقر وليشغلوا الناس بما أوردوه من محاسن الكلام عن الفكرة فى صورتها الشنيعة(٣) . .

رابعا — ومرة يحولونها إلى نكت شعرية أو كلمات هزلية لذات الغرض السابق(٤) .

خامسا — ومرة يأمرون بالقناعة ويمجدونها . .

---

(١) ص ١٢٩ من كتاب الفلاكة والمفلوكون للدلجى .
(٢) نفس المرجع السابق ص ١٢٩ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ١٢٩ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ١٢٩ .

سادسا — ومرة يذمون الأيام ويتضجرون ويتململون ويستعبشرون ويشعرون ويفتنون وهم يحسنون صنعا — ويقول الدلجى حول هذا : (إلا أنهم فى كل حال هم الخاسرون وهم ثقلاء يتعذرون لكن لا يعذرون) أم تسألهم خرجا منهم من مغرم مثقلون)(١) . .

وللأغنياء موقف :

وكان الدلجى عادلا حين أشار إلى موقف الأغنياء وهو بذاته رد عليه حيث أنحى باللائحة على الفقراء أنفسهم قائلا فى كل كتابه (أنتم السبب فى فلاكتكم) فهو هنا يرد على ما جاء فى الكتاب حيث أن للظلم الاجتماعى سبب رئيسى فى الفلاكة يقول الدلجى (والأغنياء عنهم بمعزل وعن العناية بما قال الفقراء بألف منزل ، وقد أغناهم الفعل عن القول والفضل عن الفضول والاعذار عن الاعتذار(٢) .

وللشعر دولته وأهله :

نثر الدلجى شعرا كثيرا نقلت منه شيئا يسيراً ووضعت العناوين من عندى :

اعتراف :

إذا فات الفتى شيئان أضحى
بعيداً من ممازجة القلوب
جمال الوجه وأو مال عظيم
يزين فى حضور أو مغيب

(١) ص ١٢٩ من كتاب الفلاكة والمفلكون للدلجى .
(٢) المرجع السابق ص ١٣٠ .

فكثر المال يشفع فى المادى
وحسن الوجه يشفع فى الذنوب

واحدة بواحدة :

أهل المناصب فى الدنيا ورفعتهما
أهل الفضائل محقورون بينهم
قد أنزلونا لأنا غير جنسهم
منازل الوحش فى الاهمال عندهم
فليتنا لو قدرنا أن نعرفهم
مقدارهم عندنا أولو دورهم
لهم مريحان من جهل وفرط غنى
وعند المتعبان العلم والعدم

الدعاوى الكاذبة :

أهوى الخمول لكى أظل مرفها
مما يعانيه بنوا الأزمان
إن الرياح إذا عصفن لواقحا
تولى الاذية شامخ الأغصان

وألصقوا به العيوب :

المرء يخطى ثم يعلو ذكره
حتى يزين بالذى لم يفعل
وترى الفقير إذا تكامل عيبه
يرمى ويبخل بالذى لم يعمل

والحظ دوره :

والنـاس فى طلب المعاش وإنمـا
بالجـد يرزق منهم من يرزق
لو يرزقون على وزان عقولهم
ألفيت أكثر من ترى يتصـدق

الخمول ليس بعيب :

ليـس الخمـول بعـار
عـلى امرىء ذى جـلال
فليـلة القـدر تخفـى
وتلـك خـير الليـالى

ولا يرضى بالذل :

حيـائى حافظ لى مـاء وجهى
ورفقى فى مطـالبتى رفيقى
ولو أن سمحت ببذل وجهى
لكنت إلى الغنى سهل طريقى

التسـامى :

مـا تطعمت لـذة العيش حتى
صرت للبيت والكتاب جليسـا

أى شيء أعز عندى من العلم فما
ابتغـــى ســـواه أنيســـا
إنما الذل فى مخلطة الناس فدعهم
وعـــش رئيســـاً عـــزيزا

التسامى :

شغلنـا بالعلم عن مكسب الغنى
كما شغلوا عن مكسب العلم بالوفر
وصار لهم خطر من الجهل الغنى
وصار لنـا خطر من العـلم والفقر

وجهة نظر المفلوك :

وقائله ما بال مثلك خامـــلا
أأنت ضعيف الرأى أم أنت عاجز
فقلت لهـا ذنبى إلى القوم أننى
لمـا لم يحـوزوه من المجـد حائز
وما فاتنى شيء سوى الحظ وحده
وأمـا المعـالى فهى عندى غرائز

دعوى التوكل :

وإذا أمرؤ أفنى الليـالى حيرة
وأمانيـــا أمنيتهن توكـــلا

إخفاء المحاسن :

ولئن خفيت عن الورى وفضائلى
كمد الحسود ونار غيظ الكادح
فالنار فى أشجارها مخبوءة
حتى ينام لها يمينى القادح

مذاهب الناس فى الفقر

قد عرفت الإنسانية الفقر والفقراء منذ أزمنة ضاربة فى أغوار التاريخ وحاولت الأديان والفلسفات منذ القدم أن تحل مشكلة الفقر والفقراء ، وتخفف من عذاب الفقراء حينا عن طريق الوصايا والمواعظ والترغيب والترهيب ، وتارة عن طريق التحليق النظرى فى عالم مثالى لاتفاضل ولا طبقات ، ولا فقر ولا حرمان وهو عالم يرسم على صفحات الكتب لا من واقع الناس ، وأبرز مثل لذلك جمهورية أفلاطون ، قبل بضعة قرون من ميلاد المسيح عليه السلام وطوراً عن طريق حركات متطرفة تريد معالجة لانحراف أشد منه ، كحركة « مزدك » فى فارس بعد خمسة قرون من الميلاد وقد دعا إلى شيوعية الأموال والنساء . وفى عصرنا هذا احتلت مشكلة الفقر ـ والمشكلة الإقتصادية على وجه مكانا فسيحا فى عقول الناس وقلوبهم ، واتخذها المخربون الهدامون أداة لإثارة الجماهير ، والتأثير عليها، وكسبها إلى جانب مذاهبهم اللادينية الباطلة ، بإيهامهم أنها فى صف الضعفاء وفى خدمة الفقراء ، وساعد على ذلك جهل المسلمين بنظام الإسلام ، وتأثيرهم بالدعايات المضللة التى مسخت صورته وشوهت جماله ، مستغلة فى ذلك الواقع الكئيب لحياة المسلمين . والأفهام الخاطئة لبعض علمائهم فى عهود الانحطاط ..

أولا — نظرة التقديس له :

وهؤلاء طائفة من المتزهدين دعاة التقشف والصوفية زعموا أن الفقر ليس شراً يطلب الخلاص منه وليس مشكلة يبحث عن حلها فأهلا بالفقر حيثما حل بل هو نعمة من الله يسوقها لمن يحبه من عباده ليظل قلبه معلقا بالآخرة راغبا عن الدنيا موصولا بالله صافيا ذهنه من أوضار المال والمادة رحيما بالناس بخلاف الغنى الذى يلهى ويطغى و . . . .

والفقر مقدس لأنه تعذيب للجسد الفانى لترقية الروح وشاع هذا عند بعض متصوفة المسلمين متأثرين بالثقافات الفارسية والهندية والرهبانية المسيحية المبتدعة وغيرها من النحل الدخيلة على حياة المسلمين ولهذا رفع هؤلاء الشعار قائلين (إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته) . .

وهؤلاء من العبث أن يطلب من هؤلاء تقديم علاج للفقر وما نشأ عنه من خلل فى البنية الانسانية . .

موقف الاسلام من هؤلاء :

ينكر الاسلام على هذه الطائفة نظرتها إلى الفقر خاصة على أنه هو السلوك الذى ينبغى أن يسير عليه الانسان فليس فى مدح الفقر آية واحدة من كتاب الله ولا حديث واحد صحيح والأحاديث الواردة فى الزهد ومدحه والدنيا وذمها لا تنى مدح الفقر فإن الزهد يقتضى ملك شىء ثم يزهد فيه الانسان فالزاهد حقا من ملك الدنيا وجعلها فى يده ولم يجعلها فى قلبه والاسلام جعل الغنى نعمه ومنة امتن الله بها على عباده وطالب بشكرها وجعل الفقرا ختيارا ومصيبة تحل بالانسان يستعاذ بالله منها ووضع الاسلام لذلك الحل ..

ثانيا — موقف الجبريين : القضاء والقدر :

وهذه الطائفة تخالف سابقتها فى النظرة إلى الفقر وترى فيه شراً وبلاءً ولكنها ترى أنه قضاء وقدر لا يجدى معه الطب ولا الدواء ولا العلاج ففقر الفقير وغنى الغنى بمشيئة الله تعالى وقدره ولو شاء الله لجعل الناس كلهم أغنيـاء ولكنه شاء أن يرفع بعضهم فوق بعض درجات يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ليبلوهم فيما آتاهم لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه إلى غير ذلك من الكلام الحق الذى يراد به الباطل . .

والعلاج الذى يقدمه هؤلاء للفقراء هو وصيتهم لهم بأن يصمدوا على الاستيلاء ويقنعوا بالعطاء فالقناعة كنز لا يفنى وثروة لا تنفذ والقناعة تعنى الرضا بالواقع على أى حال كان . .

النظرة الجبريـــة :

وهؤلاء زعموا أن الفقر والغنى أمر محتوم وقدر مشئوم لا راد له ولا حيلة فى دفعه وأن غنى الغنى بمشيئة الله وفقر الفقير بمشيئة الله قالوا فليرض كل واحد بوضعه . .

فحين احتجوا بالمشيئة والقدر رماهم الله بالضلال المبين يقول تعالى : « وإذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين »[1] . .

وأى ضلال أبين من أن يقيد هؤلاء مشيئة الله بأهوائهم فإذا شاء الله أن يطعم عاجزا أو محتاجا فى نظرهم أنزل له من السماء خبزاً وإداما أو

---

(١) سورة يس الآية ٤٧ .

سمنا وعسلا ؟ وهذا قادر فعلا على ذلك ولكنهم لو عقلوا وأنصفوا لعلموا أن الله يرزق الناس من بعضهم من بعض وأن القادر حين يقوم بكفاية العاجز إنما يكفيه بمشيئة الله . .

فالمرض بقدر الله والعلاج بقدر الله والمؤمن الصادق يدفع قدراً بقدر كما يدفع الجوع بالغذاء والعطش بالشرب . .

فإذا كان الفقر داءاً فإن الله تعالى جعل له دواءاً . . أما القناعة التى فسروها هى الرضا بالدون من العيش والحياة الهون والذلة والمهانة والقعود عن السعى إلى الغنى الحلال فالرسول عليه السلام كان يسأل الغنى والتقى[1] ودعا لصاحبه أنس بقوله (اللهم أكثر ماله)[2] وأثنى على صاحبه أبى بكر الصديق بقوله (ما نفعنى مال مثل ما نفعنى مال أبى بكر)[3] . .

ولكن القناعة تعنى أمرين :

أحدهما : أن الإنسان بطبيعة يحب المال ويحرص على الدنيا فأمر بالاعتدال فى ذلك والسعى للغنى لا بالشره وعليه أن يجمل فى طلب الرزق[4] . .

ثانيهما : أن يوقن المسلم بأن الله فاضل بين الناس فى الرزق كما فاضل بينهم فى المواهب « يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر »[5] فلابد أن يكون المسلم واقعيا يعترف بحياته كما هى لئلا يعيش فى هم ونصب جريا وراء وهم كاذب . .

---

(١) أخرجه مسلم .
(٢) أخرجه البخارى .
(٣) أحمد فى المسند .
(٤) ص ٢٠ من الكتاب .
(٥) سورة الإسراء الآية رقم ١٧ .

ثالثا : طائفة الرأسماليين :

الفقر مشكلة وشر والمسؤول عنه الفقير ، أو الحظ أو القدر ، أو أى سبب لكن ليس المجتمع وليس الدولة وليس الأغنياء فكل فرد مسؤول عن نفسه حر فى تصرفه حر فى ماله . . وزعيم هؤلاء قارون « قال إنما أوتيته على علم عندى »[1] فهم يرون أن ماجمعوه من مال بذكائهم وبجدهم فإن تصدق على الفقير فبفضله وشعارهم « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه»[2] . .

وهذه النظرة المادية سادت أوربا فأصبح الفقير كما يقول : الدكتور القرضاوى « فى هذا المجتمع أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام » لا حق لهم يطالبون به ولا سند لهم يعتمدون عليه . . . فهى أنانية مفرطة لا تنظر إلى صغير أو فقير أو ضعيف أو زمن حتى ديس الفقير تحت الأقدام وعملت المرأة تحت وطأة الفقر وكذلك الأحداث ونسى الكهول والعجائز فى حظائر يأكلهم النسيان حسب ما يحلو له وثار الفقير تحت هذه الظروف وطالب بحقه . .

والاسلام يرد على الرأسمالية :

فالرأسماليون يرون أن المالك الحقيقى للمال هو الفرد نفسه فهو صاحب الحق الأول والأخير يتصدق منه إن شاء ويبخل إن شاء ويسرف إن شاء ولكن الإسلام يرى أن المال مال الله هو خالقه وواهبه وأن الغنى مستخلف فيه وأمين عليه فالمسلم نائب عن المالك الأصلى فى رعايته وتنميته وتعويضه وفقا لأوامره ومرضاته « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم »[3]

---

(١) سورة القصص الآية ٧٨ .
(٢) سورة يس الآية ٤٧ .
(٣) سورة النور الآية ٣٣ .

« وانفقوا مما رزقناكم »[1] فالاسلام يلزم المسلم الغنى بأحد أركان الاسلام — الزكاة — أن ينفق على الفقير فإن جحد الزكاة قوتل واعتبر مرتداً عن الإسلام بالاضافة إلى ترغيبه فى البذل ووعده بأن الله يخلفه « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين »[2] . .

رابعاً : موقف الاشتراكية :

فرح الفقير بالاشتراكية حين رفعت دعوى نصرة الفقير شعار النصر له ممن ظلمه فصودرت أموال الأغنيـــاء وحرموا من ثرواتهم وألبت الطبقات بعضها على بعض وتأججت نيران الحقد الدفينة وحاربوا مبدأ الملكية الفردية وحرموا على الناس الملك الفردى « ثروات الإنتاج لكنهم لم يقدموا للفقير شيئا بل أخذه امبراطوريو الأحزاب الحاكمة فحرم الأغنياء من غناهم وساووا الفقراء فى فقرهم . .

والاسلام يرد على الاشتراكية :

فهؤلاء الذين لا يرون علاجا للفقر إلا فى تحطيم طبقة الأغنياء ومصادرة ما ملكوه ويحرمون مبدأ الملكية الفردية ويوغرون صدور الناس فإن الاسلام ينكر نظرتهم من أساسها « لأن هناك أغنياء شكروا على اعطائهم المال وأدوا حقه كاملا حق الله وحق الناس ولا يجوز أن تعاقب طبقة بأسرها بذنب أفراد منها « ولا تزر وازرة وزر أخرى »[3] « كل امرىء بما كسب رهين »[4] . .

---

(١) سورة المنافقون الآية ١٠ .

(٢) سورة سبأ الآية ٣٩ .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٦٤ .

(٤) سورة الطور الآية ٣١ .

ثم أن في اقرار المالكية الفردية إشباعا لدافع فطرى أصيل ألا وهو غريزة حب التملك نظرا لما يترتب عليها من آثار ولكن يضع حدوداً وقيدوا للمالكية الفردية ويجعلها أساسا لنظام الاقتصاد . .

فإذا استغل الناس أو بعضهم ملكياتهم وجاروا فيها لا يعنى فساد مبدأ التملك فالفساد فى أنفس الناس فإن صلحوا فالمال خير . . نعم المال الصالح للرجل الصالح »[1] . وإن فسدوا فالوزر عليهم لا على التشريع . .

ثم إن الإسلام لا يقبل علاج مشكلة ما إذا حصلت بإيجاد مشكلة أخرى أسوأ منها وهذا ما يحصل بالنسبة للاشتراكية فقد عالجت مشكلة الرأسمالية بمشكلتها هى فهو أسوأ آثاراً وأكثر فساداً فى الأرض . . ونجحوا فى تعميم الفقر واحتجان المال لهم . .

ما هو الفقر ؟

قال الراغب فى المفردات (الفقر يستعمل على أربعة وجوه) :

الأول : وجود الحاجة الضرورية وذلك عام للانسان ما دام فى دار الدنيا بل عام للموجودات كلها وعلى هذا قوله تعالى « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله »[2] وإلى هذا الفقر أثار بقوله « وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام »[3] أى لهم محتاجون إلى الطعام . .

الثانى : عدم المقتنيات : للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله — إلى قوله أن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله »[4] وعليه آية الصدقات . .

---

(١) مسند الإمام أحمد ـ ١٩٧/٤ .
(٢) سورة فاطر الآية ١٥ .
(٣) سورة الأنبياء الآية ٨ .
(٤) سورة النور الآية ٣٢ .

الثالث : فقر النفس : وهو الشره المعنى بقوله عليه السلام (كاد الفقر أن يكون كفرا) والمعنى بقولهم : من عدم القناعه لم يفده المال غنى . .

الرابع : الفقر إلى الله : والآيات الأخرى والأحاديث الدالة على حاجة الناس إلى الله تبـارك وتعالى كثيرة وعنى بقوله « انى لما أنزلت إلى من خير فقير »[1] . .

والفقر نسبى :

فمشكلة الفقر لا زمت الانسانية عبر التاريخ إلا أن الإنسان لا يشعر بوطأة الفقر إلا تدريجيا بزيادة حاجاته تبعا لدرجة تطوره وتقدمه فالانسان الأول رغم قلة موارده لم يكن يشعر بوطأة الفقر نظراً لقلة حاجاته وتطلعاته وطموحاته . .

فمسأله الفقر إذن نسبية تختلف باختلاف الزمان والمكان ولاشك أن فقر العصر الحاضر يعتبر غنيا بالنسبة إلى إنسان العصر القديم كما أن متوسط الحال فى مصر والهند يعتبر فقيرا بالنسبة لمتوسطى الحـال فى أمريكا وأوربا[2] . .

وفى هذا يعكس الفقر التفاوت فى الدخول والتفاوت فى حد ذاته يعترف به الاسلام لأنه سنة كونية « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ماملكت أيمانهم »[3] . .

---

(١) سورة القصص الآية ٢٤ .
(٢) الموسوعة / لاجمال ص ٣٥ .
(٣) سورة النحل آية ٧١ .

ويقول تعالى « أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون »[١] .. وقال تعالى « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم »[٢] والهدف من التفاوت والله أعلم هو التسخير والابتلاء والتسخير هنا تسخير عمل ونظام لا تسخير قهر وعبودية فالإسلام لا يعترف إلا بالتعاون على أن الجميع يحتاج بعضهم إلى بعض [٣] ..

---

(١) سورة الزخرف آية ٣٢ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٦٥ .

(٣) د. عبد الهادى النجار ــ الإسلام والاقتصاد ــ صدر سلسلة عالم المعرفة بالكويت ــ عام ١٩٨٥ م ــ ١٤٠٣ هـ .



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

البعد العقدى لمشكلة الفقر



مقدمة

عمل الدلجى على استجلاء ما قد يكون وراء الفقر من عوامل عقائدية تولد عنها أنتجته ، ثم قام بتحليل مارآه من هذه العوامل مبينا كيف أنها لا يصح أن تنتج هذه المشكلة .

وذلك من خلال حديثه عن :

١ – مسألة القضاء والقدر : وأنه لايحتج به على وجود الفقر .

٢ – مسألة التوكل : وأنه لايحتج به على وجود الفقر .

٣ – ومسألة الزهد والورع : وأنه لايحتج به على وجود الفقر .

وقبل أن ندخل فى تحليل ومناقشة آراء الدلجى تجاه تلك المسائل الثلاث، نرى ـ من وجهة نظرنا ـ أن مجرد تعرضه لهذا البعد العقائدى فى مشكلة الفقر أمر يستحق التنويه خاصة إذا علمنا أن الكثير من الفقراء قد يتعللون أو قد يعتذرون عن فقرهم بعامل أو بآخر من تلك العوامل .. كما أن تأثير الإعتبارات النفسية فى سلوك الإنسان أمر واضح غير مجهول . .

لكنه مع ذلك يبقى هنا تساؤلات موجهة للشيخ الدلجى لم يجب عنها فى كتابه الذى نقوم بتحليله فمنها مثلا :

أن الدلجى يلوم الفقر وحده :

حيث أن حديثه انصرف إلى الفقراء وكأنهم وحدهم هم الذين أوجدوا لأنفسهم هذه المشكلة ، بيد أن حقيقة الأمر وواقعه أن الفقراء ظاهرة

إجتماعية تنشأ فى المجتمع وتتضافر على نشأتها عناصر عدة قد لا يكون أهمها ما يرجع إلى الفقراء أنفسهم وهو ماأبرزه الدلجى إبرازاً واضحا يبدو وكأنه لا سبب للفقير غير الفقراء أنفسهم ، بل إن ذلك يرجع أيضـــا إلى النظام القائم والعلاقات السائدة ونوعية الفئات الفنية القادرة المتظالمة فيما بينها والتى نسيت حق الفقير . .

فكم كان هاما ومطلوبا أن يدلى الدلجى بدلوه فى هذا الإتجاه مبرزاً مسؤولية غير الفقر والفقراء ، ومبرزا أيضا مسؤولية الأنظمة السائدة عن تفشى هذه الظاهرة . .

نعم لقد بين بوضوح مدى سوء هذه المشكلة ولكن كان عليه أن يبين أن مثل هذه المشكلة تلك الحالة المتدينة لايرغب فيها أحد ، وحيث أصيب بها فرد فهى فى حقيقة الأمر شبه مفروضة عليه فرضا . .

فلو أن الدلجى وسع نظرته تجاه هذه الناحية لقدم لناالقدر الطيب من المعرفة المتعلقة بالنظم والعلاقات الإجتماعية ، وكذلك بالسياسات المتنوعة لعلاج هذه المشكلة ولكنه لم يفعل وهذا من مآخذنا عليه . .

ليس الدلجى وحده :

ولقد فعل هذا التنوية من جاء بعده بقرون عدة فى الغرب وهو القس « مالتس »[1] الذى حمـــل الفقراء وحملهم مسؤولية فقرهم مبرئا المجتمع والنظام القائم من تبعه الإسهام فى وجودها وهذا مما يثير لدينا تساؤلا عما إذا كان «مالتس» اطلع على كتاب الدلجى أم أنه مجرد توارد خواطر وهو الذى يترجح لنا .

---

(١) ولد توماس مالتس سنة ١٧٦٦ اشتهر بآرائه المتشابهة فى السكان وقام برحلات فى أوربا كاملة وألقى سلسلة من المحاضرات وأشهر مؤلفاته مقالة عن السكان عام ١٧٩٨ وبحث فى تطور الريع توفى سنة ١٨٣٤ م.

فهذا قصور فى المعالجة :

ولا شك أن التحليل العلمى الدقيق لهذه المشكلة يبرز أن مثل تلك المواقف والمعالجات لا تزال قاصرة وبحاجة إلى مزيد من التعميق والبحث المتواصل . .

ثم أن المنهج الإسلامى المتمثل فى القرآن الكريم والسنة النبوية قد تناولا هذه المشكلة تناولا شاملا مبرزاً دور العناصر المختلفة فيها مؤكداً على مسؤولية الأنظمة السائدة والفئات القادرة ماليا فى إحداث المشكلة وتعميقها مع عدم إغفال مسؤولية الفقير نفسه . .

فقد تناول القرآن والسنة بالتفصيل مسألة الملكية والتوزيع للدخول والثروات ، ومسألة الحقوق والواجبات ، ومسألة التكامل والتعاون والتضامن ويكفى كنموذج لذلك فرضية الزكاة واعتبارها ركنا من أركان الإسلام فهى حق المال وهى حق الفقير والمسكين ولا شك أن كل ذلك يمثل الأرضية الصلبة للمجتمع إن لم تنمح منه ظاهرة الفقر كلية فإنها على الأقل تخف وتنكمش لتصبح مجرد حالات فردية وعارضة خفيفة التأثير والدرجات هذا إذا تحقق التطبيق الإقتصادى الإسلامى بكامله فإن الفقر ومشكلته ينزويان ويكادان لا يظهران على السطح إلا فى القليل الأقل وسرعان ما تحل — بضم التاء — مشكلة الفقر عند ظهورها نتيجة التكافل والتعاون الذى أمر به الإسلام . .

أولا : عذر الفقير

القضاء والقـــدر والرد عليه

حسنا من الدلجى أن يطرح هذا الموضوع ليبين بجلاء ووضوح رفض هذه النظرية سواء قال بها الفقراء أنفسهم أو قال بها الأغنياء الجاحدون نعمة الله عليهم الذين قالوا : « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه »[١] . .

أقول : تحدث الدلجى عن هذه المسألة ليقطع عـذر الفقراء وتعللهم بأن ما هم عليه من فقر أمر خارج عن نطاق قدراتهم ومسؤولياتهم إذ أنه من فعل القضاء والقدر فهو أمر مقضى به ومقدر عليهم من قبل الله تعالى ولا راد لقضائه ولا حيلة لدفعه ، فبين الدلجى بأسلوب علمى رصين أن ذلك خطأ وأن القضاء والقدر لا يحتج بهما فى مثل تلك الحالة على أنهما معوقات للفقير . .

فالاحتجاج بالقضاء والقدر غير مقبول من الفقراء لأنه مطلوب منهم العمل والاجتهاد فعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : (كنا فى جنازة فى بقيع الفرقد فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله ومعه مخصرة فنكس فجعل ينكث بمخصرته ثم قال ما منكم من أحد من نفس منفوسة إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة قال فقال رجل يا رسول الله أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل فقال من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ومن كان من أهل الشقاء فيسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ثم قرأ « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى »[٢] وفى لفظ للبخارى

---

(١) سورة يس آية ٤٧ .

(٢) سورة الليل الآيات ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ .

« إعملوا فكل ميسر لما خلق له فسبق المقادير بالشقاوة والسعادة لا يقتضى ترك الأعمال بل يقتضى الاجتهاد والحرص فإن العبـــد ينال ما قدر له بالتسبب الذى أقدر عليه ومكن منه وهيء له فاذا أتى بالسبب أوصله إلى القدر والذى سبق له فى أم الكتاب وكلما زاد اجتهادا فى تحصيل السبب كان حصول المقدور أدنى إليه وهذا كما إذا قدر له أن يكون أعلم أهل زمانه فإنه لا ينال ذلك إلا بالإجتهاد والحرص على التعلم وأسبابه وإذا قدر له أن يرزق الولد لم ينل ذلك إلا بالنكاح أو التسرى والوطء وإذا قدر له أن يستغل من أرضه من المغل كذا وكذا لم ينله إلا بالبذر وفعل أسباب الزرع وإذا قدر الشبع والرى فذلك . موقوف على الأسباب المحاصلة لذلك أكل الشرب واللبس وهذا شأن أمور المعاش والمعاد فمن عطل العمل إتكالا على القدر السابق فهو بمنزلة من عطل الأكل والشرب والحركة فى المعاش وسائر أسبابه إتكالا على ما قدر له . .

وقد فطر الله سبحانه عباده على الحرص على الأسباب التى بها مرام معاشهم ومصالحهم الدنيوية بل فطر الله على ذلك سائر الحيوانات فهكذا الأسباب التى بها مصالحهم الأخروية فى معادهم فإنه سبحانه رب الدنيا والآخرة ما هو الحكيم بالقيمة من الأسباب فى المعاش والمعاد وقد يسر كلا من خلقه لما خلقه له فى الدنيا والآخرة فهو مهيأ له ميسر له . .

وقارن باحتجاج آدم وموسى فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إحتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنـــة فقال له آدم أنت موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده أتلومنى على أمر قدره الله على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة فقال النبى صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى فحج آدم موسى فحج آدم موسى .

وعن جابر بن عبد الله قال جاء سراقة بن مالك بن جعشم فقال يارسول الله بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن فيم العمل اليوم أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير أم فيما يستقبل قال : لا بل فيما جفت به الأقـــلام وجرت به المقادير قال ففيم العمل ؟ فقال اعملوا فكل ميسر) . . رواه مسلم . .

وعمران بن حصين قال قيل يا رسول الله اعلم أهل الجنة من أهل النار فقال نعم فقال ففيم يعمل العاملون فقال كل ميسر لـــا خلق له) . . متفق عليه[1] .

---

(١) قال ابن قيم الجوزية تعليقا على هذه الأحاديث والآثار فى كتابه شفاء العليل . . ص ٥٤ « فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها على أن القدر السابق لايمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه بل يوجب الجد والاجتهاد فان النبى صلى الله عليه وسلم أعلمهم بالقدر السابق وجريانه على الخليقة بالأسباب .

ابن القيم الجوزية ـ شفاء العليل فى القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، ص ٢٤ وما بعدها ـ والأحاديث المذكورة متفق عليها .

انظر المستدرك للحاكم ٣/٤٦١ .

ثانياً : عذر الفقير التوكل على الله والرد عليه

وعذر آخر قال به الفقراء أنه محض التوكل على الله فهم لا يعملون ولا يرغبون فى العمل - وذلك فى مجموعهم - لأن هذا ينافى التوكل على الله القائل « ومن يتوكل على الله فهو حسبه »[1] والقائل « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين »[2] وآيات التوكل المثبوتة فى القرآن الكريم . .

ولا شك أن التوكل عقيدة المسلم ولا يصح إسلام المرء ولا إيمانه إلا إذا رسخت لديه صفة التوكل وآيات القرآن تترى مبينة لذلك التوكل وتؤكد عليه وكذلك الأحاديث الصحيحة هذه نقطة أولى يجب إبرازها والوعى الكامل بها فلا إسلام ولا إيمان بدون توكل .

لكن السؤال الذى نطرحه الآن : هو ما أثر هذه العقيدة على السلوك الإقتصادى للمسلم بوجه خاص وسلوكه العلمى بوجه عام ؟ هذا هو محط القول وهو نفسه ماتوجه إليه الدلجى وآثاره بوضوح . .

فمنذ القديم ومنذ بداية ظهور الإسلام فهم التوكل من قبل بعض المسلمين على أنه يكفى بمفرده مع عدم تناول الأسباب وترك العمل ، ثم تطور هذا المفهوم إلى أن وصل إلى اعتقـــاد أن العمل والأخذ بالأسباب مناف للتوكل ، وقد ترتب على ذلك وقوع من اعتقد هذا الإعتقاد فى حرج ومأزق فإنه بين أمرين لاثالث لهما فإما أن يترك والأخذ بالأسباب مع احتفاظه بتوكله على الله وفى ذلك حرج عليه ومشقة وشدة وسوء الآثار على المستوى الفردى والمستوى الجمـــاعى ، وإما أن يترك التوكل ويأخذ بالأسباب وفى ذلك مافيه على مستوى العقيدة التى فهمها ومخالفته لهـــا ،

---

(١) سورة الطلاق آية ٣ .

(٢) سورة المائدة آية ٢٣ .

والملاحظ أن من أوقع نفسه في هذا المأزق الفكرى قد فضل ترك الأخذ بالأسباب محتفظا بما فهمه فهما خاطئاً عن التوكل مما ولد طائفة تظهر فى كل عصر تترك العمل الدنيوى والنشاط الإقتصادى متذرعة بأنها متوكلة على الله وبأن ذلك النشاط ينافى التوكل وبالتالى ينبرى العلماء للرد عليهم وإيضاح الحقيقة نظراً لسوء الآثار الإجتماعية والإقتصادية المترتبة على تفشى هذه الظاهرة بالإضافة إلى مافيها من خطل فكرى ودينى . .

ولقد ساهم الدلجى كغيره من العلماء فى تجلية هذه الحقيقة واستمر المد الفكرى النير بعده حتى هذا العصر الذى ساهم أيضا مفكروه بالكتابة حول هذا الموضوع لما يوجد من موجات صوفية متطرفة هى خطر على المجتمع بالإضافة إلى انتشار البطالة التى اختاروها لأنفسهم بحجة التوكل على الله وقدوا أمام مريديهم لاشيء سوى البطالة التى تخل بنشاط المجتمع الإسلامى وتصادم نصوص القرآن والسنة الحاثة على العمل والكسب لأنه من الأخذ بأسباب القوة المـــادية حتى يستمر عز الإسلام والمسلمين . .

مفهوم التوكل على الله :

وقبل أن نكتب رأى الدلجى حول هذه المسألة وهو رأى متفق مع غيره من علماء السلف والخلف فى أن التوكل على الله وترك الأسباب إتجاه يخالف الشريعة ولا عذر للفقير بهذا . . نعرج بعجالة سريعة على الكتاب والسنة وما قاله العلماء حول ذلك ونختم البحث بنقولاتنا من كتاب الدلجى نفسه الذى نقوم بدراسته ، ونتلو ذلك بسطور عن ابن قيم الجوزية . .

أولا : التوكل فى القرآن الكريم :

القارىء للقرآن الكريم يجد هذه الكلمة ومشتقاتها وردت كثيراً ومن دراسة السياق الذى وردت فيه يلاحظ الباحث أنها لم ترد على الإطلاق بقصد ترك الأسباب وعدم بذل الجهد والنشاط بل على العكس من ذلك وردت فى معرض الحث على الأعمال وخاصة الأعمال الشاقة المضنيه مثل الحروب وغيرها ففى سورة آل عمران يقــول الله : . . « فإذا عزمت فتوكل على الله »[1] فالتوكل على الله مرحلة لاحقة تسبقها مرحلة العزم والجال مجال حرب وقتال وتحريض فهو أعنف الأعمال . . ويقول الله تعالى « خذوا حذركم »[2] ويقول مخاطبا مريم عليها السلام « وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا »[3] فلو لم تهز النخلة لم يتساقط عليها الرطب مع أن الله قادر على ذلك ولكن لابد من فعل الأسباب . ويقول تعالى « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى »[4] وهو خطاب عام للمسلمين ويذكر العلماء أن سبب نزول هذه الآية هو أن اناسا من أهل اليمن حجوا ولم يأخذوا معهم زاداً بحجة التوكل على الله وذهبوا يسألون الناس ويستجدونهم فنزلت الآية فى الرد عليهم ولكن مع ذلك فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فهو عام للمسلمين فى الأمر بالتزود وأخذ الزاد فى كل رحلة حتى لا يحتاج المسلم إلى غيره وهو أخذ بأسباب الحيطة والحذر .

والآيات فى الأمر بالأخذ بالأسباب كثيرة جداً ولا تنـــافى التوكل على الله .

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩ .
(٢) سورة النساء آية ٧١ .
(٣) سورة مريم آية ٢٥ .
(٤) سورة البقرة آية ١٩٧ .

ثانيا : التوكل على الله والأخذ بالأسباب فى السنة :

(أ) صحح الرسول عليه السلام سلوك أحد الأفراد عندما وجده قد إنحرف والتبس عليه الأمر حيال هذه المسألة حيث ترك بعيره بغير عقال متذرعا ومحتجا بأنه متوكل على الله فقال له عليه السلام « اعقلها وتوكل »[١].

(ب) ولقد كان عليه السلام هو المعلم للناس جميعا فهو المتوكل على الله حق توكله ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب لأن الله تعالى جعل لكل شيء سببا فقد لبس المغفر حالة الحرب حين دخوله مكة عام الفتح . وكان عليه السلام إذا أراد سفراً للغزو ورى بسفر آخر أو بجهة غير الجهة التى يريد، بل إنه قال أنى لأرى الشاب يعجبنى فأسأل هل له حرفة فإذا قيل لا سقط من عينى[٢] . وهو القائل عليه السلام : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا له من أن يأكل من عمل يده وأن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده »[٣] . واعتبر عليه السلام أن الساعى لرزقه وإعفاف نفسه وعلى عياله له أجر المجاهد فى سبيل الله واقرأ هذه القصة (مر على النبى صلى الله عليه وسلم رجل فرأى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من جلده ونشاطه فقالوا يارسول الله لوكان هذا فى سبيل الله فقال عليه السلام « إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو فى سبيل الله وإن كان خرج على أبوين شيخين

---

(١) ابن حيان — الموارد — ص ٦٣٣ .

(٢) التراتيب الإدارية — للكتانى — ص ٢/٣٣ .

(٣) انظر : الشرح السنة للامام البغوى — رقم الحديث ٢٠٣٦ ج ٨/٦ — المكتب الإسلامى بيروت — (د.ت) ، صحيح البخارى ٢٥٩/٤ البيوع — باب كسب الرجل وعمله بيده .

كبيرين فهو فى سبيل الله وإن كان خرج يسعى على نفســه يعفها فهو فى سبيل الله وإن كان خرج يسعى رياءا ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان)[١].

وكان عليه السلام إذا وجد إنسانا يسأل الصدقة وهو قادر على العمل يهيء له أسباب العمل ويحذره من أن يسأل وهو يستطيع الكسب حفاظا على ماء وجهه وحرمت المسألة على الغني والقوى المكتسب إلا فى ظروف خاصة ومستثناة . .

وجاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله شيئا من المال فقال له عليه السلام أما فى بيتك شيء ؟ قال بلى حلس «كساء غليظ» فلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقعب «وعاء» نشرب فيه الماء فقال الرسول صلى الله عليه وسلم ائتنى بهما فأتاه بهما فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وقال من يشترى هذين ؟ قال رجل أنا آخذهما بدرهم قال صلى الله عليه وسلم : من يزيد على الدرهم ؟ مرتين أو ثلاثا قال رجل أنا آخذهما بدرهمين فأعطاهما الأنصارى وقال له اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك واشتر بالآخر قدوما فائتنى به فأتاه به فشد رسول الله صلى الله عليه وسلم عوداً بيده ثم قال اذهب فاحتطب ولا أرينك خمسة عشر يوما ففعل فجاء وقد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوبا وبعضها طعاما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا خير من أن تجيء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة إن المسألة لاتصلح إلا لذى ثلاث الذى فقر مدقع أو لذى غرم مفظع أو لذى دم موجع »[٢] . ويقول عليه السلام « من أمسى كالا من عمل يده

---

(١) مسند الإمام أحمد ٢/٣٠٠ .

(٢) تقدم تخريجه .

أمس مغفوراً له يوم القيامة »[1] ويقول عليه السلام « اعملوا فكل ميسر لما خلق له »[2] .

وقد أراد أحد الصحابة الخلو والاعتكاف لذكر الله فقال عليه السلام لاتفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته ستين عاما »[3] .

ويقول عليه السلام : الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله أو القائم الليل الصائم النهار »[4] .

والسنة مليئة وثرة بالشواهد القولية والفعلية والإقرار منه عليه السلام لصحابته فى طلب الكسب والحث عليه وعدم القعود عنه وكان كثيراً مايحثهم على الصدقة ويرغبهم فيها ولا صدقة إلا من الفائض (وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى)[5] وكان يفرح بصدقات صحابته ومساهماتهم فى سبيل الله وكان هذا منه عليه السلام إقرار للأخذ بالأسباب مع التوكل على الله حق توكله ففعل السبب لا ينافى التوكل على الله . .

---

(٢) الطبرانى فى الأوسط وأخرج الإمام محمد بن الحسن الشيبانى قوله (ص) « أنه من الذنوب ذنوبا لايكفرها إلا الهم فى طلب المعيشة » ص ٦٢ من كتاب الكسب .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) المستدرك للحاكم ٢/١٦٨ .

(٥) سنن ابن ماجة ـ رقم الحديث ٢١٤٠ .

(٦) المسند للامام أحمد ٢/٢٧٨ ، البخارى ومسلم ، وراجع فى ذلك أيضاً تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج لابن الملقن رقم ١٠٠١ ، ابن حيان ٢٢/٦ .

ثالثاً : « فى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب » :

برزت هذه الفئة المدعية للتوكل وأنكر عليهم عمر ما هم عليه وأجلاهم عن جلوسهم ومقاعدهم قائلا لهم : « قوموا فاطلبوا الرزق فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة »[١] ، وفى مناسبة أخرى يقول (إنى لأرى الشاب يعجبنى فأسأل هل له حرفة فإن قيل لا سقط من عينى)[٢] ، وفى مناسبة ثالثة يقول (التوكل على الله أن تبذر البذرة فى الأرض ثم تتوكل)[٣] . وكان ينغص القاعدين بدون عمل ويسمون أنفسهم بالمتوكلين قال ما هم بالمتوكلين بل هم المتـآكلون)[٤] ، وقال فى مناسبة أخرى (إنما خلقت الأيدى لتعمل)[٥] وهكذا وجه عمر ابن الخطاب رضى الله عنه هؤلاء الزاعمين التوكل على غير حقيقته وظنوا أن العمل اليدوى والكسب الإقتصادى ينافيه ولكنه فى حقيقة الأمر حبهم للبطالة والخمول والاتكال على الغير لا على الله سبحانه وإلا فكيف فهم اليمنيون « الحجاج » أنهم يحجون متوكلين ثم يتكلون على الناس فى الإنفاق عليهم ولو صدقوا فى توكلهم لما سألوا أحداً غير الله تعالى واليد العليا خير من اليد السفلى ولا يد عليا إذا كانوا يمدون أيديهم لسؤال الناس من غير ما بأس أو حاجة إلا الحاجة التى افتعلوها وابتدعوها لأنفسهم بحجة التوكل على الله .

---

(١) التراتيب الإدارية ـ عبد الحى الكتانى ٢/٢٢ .

(٢) التراتيب الإدارية ـ الكتانى ٢/٣٢ .

(٣) المرجع السابق : ٢/٣٣ .

(٤) المرجع السابق : ٢/٣٢ .

(٥) الأستاذ محمد الغزالى عن كتابه ظلام من الغرب مع مصادره ص ١٣٩ .

رابعاً : بعد عصر الرسول ﷺ والخلافة الراشدة :

وفى عهد محمد بن الحسن الشيبانى والإمام أحمد بن حنبل فى القرن الثانى والثالث الهجرى استمرت الفكرة (ألف الإمام الشيبانى كتابا فى الرد عليهم سماه الكسب)[1] ، وسماهم الإمام أحمد رحمه الله « المتوكلون » وألف كتابين فى الرد عليهم يبين فيهما المراد بالزهد والمراد بالورع فسمى الأول كتاب الزهد وسمى الثانى كتاب الورع ، ثم ألف تلميذه أبو بكر الخلال وهو جامع علمه كتابا صغير الحجم كثير الفائدة سماه «الحث على التجارة والصناعة والعمل» ونقل نقولات جيدة رد فيها على هؤلاء الخاملين بل سماهم الإمام محمد بن الحسن جهلة المتقشفة وسماهم جهلة المتصوفة » ورد عليهم رداً بليغا مستشهداً بالأنبياء عليهم السلام وكلهم كانوا يعملون وهم أفضل المتوكلين على الإطلاق وأعلمهم بالله ثم بدأ بالصالحين من أمة محمد عليه السلام ..

« وفى القرن الخامس » كتب الغزالى كتابه « إحياء علوم الدين » رداً بليغا على القاعدين عن الكسب[2] . .

وفى « القرن السادس وأول السابع » كتب الوصابى الشافعى كتابه « البركة فى السعى والحركة » . وفى « القرن الثامن وآخر السابع » كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وبوضوح فى الفتاوى معنى الزهد ورد على القائلين بالفكرة . .

---

(١) طبع بتحقيق د. سهيل زكار (د. ت) .
(٢) جـ ٢ ص ٦١ هـ .

خامسا : ماذا قدم الدلجى تجاه هذه المسألة ؟ :

خصص الدلجى الفصل الثالث من كتابه لمعالجة « قضيتى التوكل والزهد وعلاقتهما بالفقر » وقد تخير لهذا العنوان التالى (الفصل الثالث فى أن التوكل لا ينافى التعلق بالأسباب وأن الزهد لا ينافى كون المال فى اليدين)[١] . .

وقد بدأ الدلجى بحثه بتعريف التوكل لغة واصطلاحا فقال :

أما التوكل فى اللغة فهو فى الأصل عبارة عن إظهار العجز والاعتماد على الغير ثم جرى تخصيص لغوى بما يكون الإعتماد فيه على الله . .

وأما فى الإصطلاح : فهو « دوام حسن ملاحظة القضاء والقدر فى جميع الحوادث دون اقتصار النظر على الأسباب الطبيعية »[٢] . .

ثم بين أن التوكل بمفهومه الصحيح يجامع التعلق بالأسباب ولا ينافيها . .

ثم أخذ الدلجى يناقش مجالات حركة الإنسان فى الحياة سواء كانت حركة جسيمة أو فكرية فبين أنها لأمور ثلاثة :

١ — إما لجلب نفع .

٢ — أو المحافظة على النفع .

٣ — أو لدفع ضر .

---

(١) ص ٨ من كتاب الفلاكة والمفلوكون . .

(٢) ص ٩ من الكتاب . .

ثم بين بعد ذلك طبيعة العلاقة بين الأسباب والمسببات « علاقة المسببية والسببية » فقد تكون العلاقة قطعية . . وقد تكون العلاقة ظنية . . وقد تكون العلاقة وهمية وضرب الأمثلة العديدة على كل نوع منها وقد يستشف من كتابه حول هذه العلاقة استفادة الدلجي من ما كتبه الغزالي في هذا الموضوع في كتابه الإحياء . .

ثم بين أن ما كان قطعيا أو ظنيا فإن حركة الإنسان حياله لا تنافي التوكل بل لقد وصل الدلجي إلى أكثر من هذا فقال إن ترك الحركة هنا فيه مراغمة لحكمة الله تعالى في نصب الأسباب وفيه جهل بسنة ، الله وقد وصم من يفعل ذلك بالجنون والجهل بالشريعة ، كما أنه ارتكب محرمات عدة منها تعريض نفسه للهلاك وكذلك تعريض من يعوله أيضاً . .

ويستعين الدلجي في بحثه هذا بالنصوص من القرآن والسنة حيث ينقل آيات منها قوله تعالى « خذوا حذركم »[1] ، وقوله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة »[2] ، وقوله تعالى « فأسر بعبادي ليلا »[3] ، ثم نقل اختفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش بالغار . .

أما كانت علاقته « وهمية » فقد قال « إن الحركة والأسباب التي تربط بمسبباتها بعلاقة الوهم مثل الرقية والكي » فإن مثل تلك الحركة منافية للتوكل من حيث أن ذلك ناتج عن الحرص على الدنيا وحبها »[4] . ثم خلص إلى أنهما ينافيان جوهر التوكل وحقيقته بأنه عدم الاعتماد على

(١) سورة النساء : الآية ٧١ .
(٢) سورة الأنفال : الآية ٦٠ .
(٣) سورة الدخان : الآية ٢٣ .
(٤) انظر ص ٨ من الكتاب .

الأسباب بل الاعتماد على خالق الأسباب وعدم الاعتماد على شيء وعندم ممارستها والقيام بها شيء آخر . . . ثم انتهى الدلجى إلى نتيجة جوهرية فى موضوعنا حيث يقول «أنه ليس من شرط التوكل ترك الأسباب وإطراحها وإهمال الكسب للبدن والتدبير للقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة أو كالحم على الوضم فإن ذلك كله حرام فى الشرع ولن يتقرب إلى الله تعالى بمحارمه »[١] . .

ولنا أن نناقش الدلجى فى ما يتعلق « بالوهمية » :

ليس لأننا لانقره عليها بل نحن معه فى هذا ولكن المثال الذى اختاره لم يكن موفقا فيه فحين اختار « الرقية والكى » كمثال لذلك فلعله ذهابا منه إلى حديث المؤمنون الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب حين وصفهم عليه السلام « بأنهم لا يسترقون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون »[٢] ، فإن كان هذا ما ذهب إليه فلسنا معه لفهمه وأخذه بنص الحديث ذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أقر الرقية بالقرآن وهو شفاء وقصة حديث الرقية لايخفى على الدلجى[٣] بل وأجاز أخذ الجعل عليه وقال « إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله »[٤] . ولاشك أن الرقية جزء من مما يستفيده المسلم من القرآن حيث أنه شفاء « وينزل من القرآن ما هو شفاء »[٥] فهو شفاء للقلوب وهو شفاء للأبدان . .

---

(١) انظر ص ٨ من الكتاب .

(٢) دلائل النبوة للبيهقى ٦/٣٥٣ وهو حديث متفق عليه .

(٣) البخارى ١٠/١٩٩ .

(٤) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ٩/٤٤٣ وهو حديث متفق عليه .

(٥) سورة الإسراء : الآية ٨٢ .

أما إذا كان يقصد الرقية بغير كتاب الله وبغير الأدعية الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من التعاويذ والعزائم[١]، التى لا صلة بها بالشرع فنحن معه فى هذا ولعلنا نحسن الظن بالدلجى فهو أهل لذلك ونتفق معه، وكذلك الشأن بالنسبة للكى وقد أقر عليه السلام الكى ويعلم أن صحابته يستعملون الطب الشعبى ومنه «كيه من نار» ونحن نجزم بأن ما جاء فى القرآن من أسباب للطب وغيره وأولها القرآن والعسل وغيرهما أنهما من صميم الحقائق القطعية لا الظنية ولا الوهمية . .

ولكن ماذا عن المحافظة على النفع :

لقد مثل الدلجى بالإدخار وأفرد له حديثا لأهميته وحسناً فعل الدلجى فإن الإدخار له أثره المعروف فى الإقتصاد وفى عمليات التقدم والتخلف . . وهنا يفرع الدلجى تفريعات كثيرة معطيا لكل تفريع حكمه متأثراً فى ذلك بالإمام الغزالى فى كتابه الإحياء . .

فمثلا يقول «أما أن يكون الادخار مع فراغ القلب عن الشيء المدخر أولا يكون فإن كان مع فراغ القلب فلا ينافى الادخار المتوكل أما إن لم يكن مع يراغ القلب فإن كان الإنسان ينزعج قلبه بترك الادخار وتضطرب نفسه وتتشوش عليه عباداته ويتطلع إلى ما فى يد الناس فإن الادخار له أولى»[٢] . . وقد بين مستند هذا القول بأن «المقصود إصلاح القلوب لتتجرد لذكر الله ورب شخص يشغل عن وجود المال ورب شخص يشغله

---

(١) جمع عزيمة . .

(٢) انظر ص ٩ من كتاب الفلاكة والمفلوكون .

عدمه والمحذور هو الشغل عدماً كان أو وجوداً »[1] وهذا موقف طيب من الدلجي نؤيده فيه ونقدره له .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدخر : ثم بين الدلجي أن الرسول عليه السلام كان يدخر فقد ادخر لعياله قوت سنة[2] ، وبين الحكمة فى نهى الرسول عليه السلام لأم أيمن ولبلال عن الادخار من أن الادخار يضر ببعض الأشخاص دون بعض ويؤيد ذلك مما نضيفه على الدلجي عدم قبول الرسول عليه السلام من أحد الصحابة ماله كله صدقة بل ورماه عليه غاضباً قائلاً : (يأتى أحدكم بماله كله فيتصدق به ثم يقعد لاصقاً بالأرض) فهذا الأمر منه عليه السلام بالادخار لمثل هذا الشخص — فإن قيل — بأنه عليه السلام قبل من أبى بكر ماله كله حين تصدق به فكيف رفض من مثل هذا الصحابى ماله كله قلنا أن المسألة تعود لقوة الإيمان والتوكل على الله فإيمان أبى بكر رضى الله عنه وتوكله أعمق بكثير من إيمان هذا الصحابى الذى قد لا يستطيع أن يصل مرتبة أبى بكر والله ورسوله أعلم وهذا هو السر فى تفاوت المتوكلين على الله حق توكله . .

وننقل الحديث كاملاً لما فيه من تعليم من الرسول عليه الصلاة والسلام لصحابته وللمسلمين ولمعرفة أن ليس كل إنسان يستطيع أن يتوكل توكل غيره فالتوكل نسبى فتوكل أبى بكر رضى الله عنه غير توكل هذا الصحابى وإلا لقبل منه عليه السلام ماله كله فحيث اختلف الناس فى منزلة التوكل على الله أمرهم عليه السلام أن لا يفرطوا فى مالهم ولا فى أكثره (الثلث والثلث

---

(١) انظر ص ١٠ من الكتاب .
(٢) تاريخ بغداد ٩/٤٤٣ .

كثيراً إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس)[١]
وهذا هو نص الحديث : (عن جابر رضى الله عنه قال كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاء رجل فقال يارسول الله أصبت هذه من معدن فخذها فهى صدقة ما أملك غيرها فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم فأتاه من ركنه الأيمن فأعرض عنه ثم أتاه من قبل ركنه الأيسر فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه من خلفه فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فحذفه فلو أصابته لأوجعته أو لعقرته فقال رسول الله صلى الله عليه يأتى أحدكم بما يملك فيقول (هذه صدقة ثم يقعد يستكنف الناس خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى)[٢] . .

---

(١) تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج : لابن الملقن ٢/٣٥٤ ، أخرجه الحاكم على شرط مسلم ١/٤١٣ ووافقه الذهبى .

(٢) أخرجه أبو داود ٢/١٢٨ باب الزكاة ، وابن حبان ٨٣٩ موارد الظمآن ..

تقييم لبحث الدلجى حول التوكل

هذا عن معالجة الدلجى للتوكل وهى معالجة فى نظرنا جيدة وموفقة إذ تكشف عن الموقف الإسلامى السلفى حيال هذه المسالة فلم يختلف نهج الدلجى عن مافهمه السلف بحيال هذه المسالة ومنها يتضح أن التوكل بمفهومه الاسلامى لا ينافى الأخذ بالأسباب ولا يصح أن يكون متكئاً للفقير والفقر والتخلف ، وننتهى إلى نتيجة أخرى أنه من يفتقر ويتذرع بأنه متوكل على الله فهو باطل وهو عاص لله حيث ارتكب العديد من المحرمات . .

ولنا على الدلجى ملاحظة :

وهو أنه ركز جهده فى بحثه هذا على إبعاد السلبيات عن التوكل ودحض كل ما قد يفهم منه أنه يحض على ترك العمل ومن ثم ينتهى إلى الفقر والتخلف ولكن الدلجى لم يبرز الدور الايجابى للتوكل ، فالمعالجة الشاملة للتوكل لا تقتصر على إبعاد الدور السلبى له بل وتمتد لإظهار الجانب الإيجابى حيث أن التوكل ليس عنصرا محايدا لا يضر ولا ينفع أنه لا يضر نعم وهذا ما أوضحه الدلجى بجلاء كما أنه ينفع وهذا ما لم يظهره الدلجى ولم يكشف عنه فالواقع أن التوكل — كما ذهب أحد المعاصرين[1] طاقة كبرى فى يد الإنسان تدفعه دفعا إلى ممارسة الحركة والأخذ بالأسباب لما أنها تعصمه من لليأس والقنوط عند عدم تحقق النتائج وعدم إنتاج الأسباب لسبباتها وكذلك تعصمه من الغرور والصلف عند تحقق النتائج وهذا مايميز

(١) هو الدكتور شوقى أحمد دنيا فى كتابه الإسلام والتنمية الاقتصادية ص ٣٦٠ — طبعة دار الفكر العربى — طبعة أولى — ١٩٧٩ م القاهرة . .

المؤمن عن غيره فالمؤمن بتوكله على الله يقف من النتائج موقفا متزناطبيعيا فلا يأس ولا هلع ولا غرور ولا تكبر وبعكس غير المؤمن فإن لسان حال قوله تعالى « قل كل من عند الله »[١] . . أما لسان حال غير المؤمن فيقول كما قال قارون « إنما أوتيته على علم عندى »[٢] . .

« وهكذا فإن التوكل تجنيد للقوى والطاقات الروحية بجواز ما تحت اليد من أسباب مادية سعيا وراء تحقيق النتائج فهو طاقة موجبة ومدعمة حين ممارسة الحركة وقبل ممارستها وبعد الانتهاء منها »[٣] . .

وماذا قال ابن قيم الجوزية :

ونختم بحث التوكل بسطور نقلناها ملخصة عن ابن قيم الجوزيةوالذى استفاد منه الدلجى كثيرا فى كتابه هذا قال : (والفرق بين التوكل والعجز أن التوكل عمل القلب وعبوديته إعتماداً على الله وثقة به والتجـــاء إليه وتفويضا إليه ورضا بما يقضيه له لعلمه بكفايته سبحانه وحسن إختيـاره لعبده إذا فوض إليه مع قيامه بالأسباب المأمور بها واجتهاده فى تحصيلهـا فقد كان رسول صلى الله عليه وسلم أعظم المتوكلين وكان يلبس لامتـــه ودرعه بل ظاهر يوم أحد بين درعين واختفى فى الغار ثلاثا فكان متوكلا فى السبب لا على السبب . وأما العجز فهو تعطيل الأمرين أو أحدهما فإما أن يعطل السبب عجزاً منه ويزعم أن ذلك توكل ، ولعمر الله إنه لعجز وتفريط ، وإما أن يقوم بالسبب ناظرا إليه معتمدا عليه غافلا عن السبب معرضا عنه ، وإن خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخطر ولم يعلق قلبه به تعليقا

---

(١) سورة النساء : آية ٧٨ .

(٢) سورة القصص : آية ٧٨ .

(٣) نفسه د. شوقى دليا ص ٣١٢ .

تاما بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب فهذا توكله عجز وعجزه توكل وهذا موضوع إنقسم فيه الناس طرفين ووسطا « فأحد الطرفين » عطل الأسباب محافظة على التوكل «والثانى» عطل التوكل حافظة على السبب «والوسط» علم أن حقيقة التوكل لا يتم إلا بالقيام بالسبب فتوكل على الله فى نفس السبب وأما عن عطل السبب وزعم أنه..وكل فهو مغرور مخدوع متمن كمن عطل النكاح والتسرى وتوكل فى حصول الولد ، وعطل الحرث والبذر وتوكل فى حصول الزرع، وعطل الأكل والشرب وتوكل فى حصول الشبع والرى، فالتوكل نظير الرجاء، والعجز نظير التمنى لحقيقة التوكل أن يتخذ العبد ربه وكيلا له قد فوض إليه كما يفوض الموكل إلى وكيله العالم بكفايته ونهضته ونصحــــه وأمانته وخبرته وحسن إختياره ، والرب سبحانه قد أمر عبده بالاحتيال وتوكل له أن يستخرج له من حيلته ما يصلحه فأمره أن يحرث ويبـذر ويطلب رزقه ضمان ذلك كما قدره سبحانه ودبره واقتضته حكمته وأمره أن لا يعلق قلبه بغيره بل يجعل رجائه له وخوفه منه وثقته به وتوكله عليه وأخبره أنه سبحانه الملى بالوكالة الوفى بالكفالة ، فالعاجز من رمى هذا كله وراء ظهره وقعد كسلان طالبا للراحة مؤثرا للدعة يقول : الرزق يطلب صاحبه كما يطلبه أجله وسيأتينى ما قدر لى على ضعفى ولن أنال مالم يقدر لى مع قولى ولو أنى هربت من رزقى كما أهرب من الموت للحقنى فيقـال له : نعم هذا كله حق وقد علمت أن الرزق مقدر فما يدريك كيف قدر لك ، بسعيك أم بسعى غيرك ، وإذا كان بسعيك فبأى سبب ومن أى وجـه ، وإذا خفى عليك هذا كله فمن أين علمت أنه يقدر لك إتيانه عفوا بلا سعى وبلا كد فكم من شىء سعيت فيه فقدر لغيرك وكم من شىء سعى فيـه غيرك فقدر لك رزقا ، فإذا رأيت هذا عيانا فكيف علمت أن رزقك كله بسعى غيرك ؟ وأيضا فهذا الذى أوردته عليك النفس يجب عليك طرده فى جميع الأسباب مع مسبباتها حتى فى أسباب دخول الجنة والنجاة من النار،

فهل تعطلها إعتمادا على التوكل أم تقوم بها مع التوكل ، بل لن تخلو الأرض من متوكل صبر نفسه لله وملأ قلبه إلى الله واطمأن إليه ووثق به وكان هذا من أقوى أسباب حصول رزقه فلم يعطل السبب وإنما رغب عن سبب إلى سبب أقوى منه فكان توكله أوثق الأسباب عنده فكان اشتغال قلبه بالله وسكونه إليه تضرعه إليه أحب إليه من اشتغاله بسبب يمنعه من ذلك أو من كماله فلم يتسع قلبه للأمرين فأعرض أحدهما إلى الآخر ، ولا ريب أن هذا أكمل حالا من امتلأ قلبه بالسبب واشتغل به عن ربه وأكمل منهما من جمع الأمرين وهي حال الرسل والصحابة فقد كان زكريا نجارا وقد أمر الله نوحا أن يصنع السفينة ، ولم يكن في الصحابة من يعطل السبب إعتماداً على التوكل بل كانوا أقوم الناس بالأمرين ، ألا ترى أنهم بذلوا جهدهم في محاربة أعداء الدين بأيديهم وألسنتهم وقاموا في ذلك بحقيقة التوكل وعمروا أموالهم وأصلحوها وأعدوا لأهليهم كفايتهم من القوت اقتداء بسيد المتوكلين صلوات الله وسلامه عليه)[1] . .

---

(١) كتاب الروح - لابن قيم الجوزية - ص ٣٤٤ وما بعدها - دار الفكر للنشر - الأردن - عمان سنة ١٩٨٥ م . .

ثالثاً : عذر الفقير الزهد

الزهد فى اللغة : الشيء القليل والزاهد فى الشيء الراغب عنه والراضى عنه بالقليل والزهيد القليل قال تعالى « وكانوا فيه من الزاهدين »[١] .

الزهد فى الاصطلاح : الإعراض عن الشيء لاستقلاله واحتقاره وارتفاع الهمة عنه . هذا ما عرفه به الإمام بن رجب[٢] . .

وماذا قال الزهاد : مستندهم حديث (الزهادة فى الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا بإضاعه المال ولكن الزهادة فى الدنيا أن لا تكون فيما بديك أوثق مما فى يد الله ... وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أصبحت بها أرغب فيها لو أنها بقيت لك)[٣] . .

وفى الحديث الآخر : (ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس)[٤] .

والخطأ قصر مفهوم الزهد على المال والمتاع الدنيوى متابعة للمستشرقين . . والذى نلحظه خطأ تصور المستشرقين للزهد الإسلامى بسبب معاصرتهم لمقاييس الحضارة المادية . حيث طغت فيها شهوات البحث عن المتع والشهوات أصبحت معايير التقدم فيها قائمة على أرقام الإنتاج

---

(١) المفردات للراغب الاصفانى فى مادة « زهد » ص ٢١٥ ، سورة يوسف الآية ٢٠ .

(٢) جامع العلوم والحكم شرح الأربعين النووية لابن رجب ص ٢١٠ .

(٣) انظر : الفتح الكبير ـ للسيوطى ـ ج ٣/١٤٦ .

(٤) أخرجه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الإيمان — انظر : الفتح الكبير لجلال الدين السيوطى ج ١/١٧٦ .

وقوائم الميزانيات والتصاعد المذهل فى الإقبال على السلع الإستهلاكية وكل هذه المظاهر تخالف بدون شك الحضارة الإسلامية الأولى بمقاييسها فمفاهيم المستشرقين تنطبع فى أذهانهم صور الرهبانية فى الدير منقطعين عن الإنشغال بالأمور المادية والمشاركة فيها[١] . .

الزهد عند الدلجى :

عرفه المؤلف بقوله : وجود المال فى اليدين لا فى القلب . . ويقول : فدخول الدنيا على العبد وهو خارج عنها لاينافى الزهد وإنما أعلى المقامات أن يستوى عند القلب وجود المال فإن وجده لم يفرح ولم يتأذ وكذلك إن فقده[٢] . .

فهذا هو الزهد الذى تحدث عنه المؤلف وقاله إن الفقراء يتعللون بالزهد ولم يصدقهم فى اتجاههم هذا بل إنهم استغلوا هذا الإتجاه عذراً لهم فى فلاكتهم وفقرهم حتى لا يلاموا حين يطلب منهم العمل والنشاط والكد والتعب وحين تتلى عليهم نصوص الشريعة فى وجوب الكسب وأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يكسبون بأيديهم ولم يكونوا عالة على غيرهم ومع ذلك فهم من أزهد الناس بالمعنى الذى قدمه المؤلف وقد يسمى هذا الزهد (الفقر التعبدى) إن صحت التسمية لعموم الأحاديث الوردة فى مدح الزهد الحقيقى (يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا)[٣] . .

---

(١) ومن تابع المستشرقين فى تصوراتهم من المحدثين د. عبد الرحمن بدوى فى كتابه شخصيات قلقة ـ قارن بكتاب الأستاذ د. مصطفى حلمى « الزهاد الأوائل » ص ١١ منه وقارن أيضاً بصفحة ١٧ منه .

(٢) انظر ص ٨٠ من الكتاب .

(٣) بعد البحث الشديد لم أعثر على هذا الحديث .

ونختم بحث الدلجى للزهد بتوضيح أكثر حيث يقول : الزهد فى الاصطلاح « ترك المباح المحبوب المقدر عليه لأجل الله . .

فالقيد الأول : ترك المباح متارك المحظورات والممنوعات لا يسمى زاهداً . .

والقيد الثانى : أن يكون مالا يؤبه له ، فما لا مؤيه له كالتراب والحجر حين يتركهما لا يسمى زاهداً . .

والقيد الثالث : كونه توجه إلى الله فباذل المال وتاركه على سبيل السخاء واستمالة القلوب والطمع فى الثناء لايسمى زاهداً بل هو استعجال حظر آخر للنفس . .

القيد الرابع : المقدور عليه فما لم يكن مقدوراً عليه وتركه الإنسان فلا يسمى زاهداً كالزهد فى الملك .



الفصل الثاني

الآثار السلبية للفلاكة « الفقر »



خصص الدلجى فصلا كاملا لبيان الآفات التى تنشأ من الفلاكة ونعرض هنا أولا : معالجة الدلجى لتلك الآفات ، ثم بعد ذلك نعلق عليها من وجهة النظر التى نراها أصح وأقوم . .

حملة ضارية واتهامات للفقراء :

لقد حمل الدلجى على المفلوك « الفقير » حملة شعواء واصفاً له بصفات دميمة فيها الكثير فى المبالغة علماً بأن أغلب الصفات التى وصفها به قد يشاركه غيره من الآخرين الذين ليسوا بمفلوكين وقبل أن ندلى برأينا حيال هذا الموقف من الدلجى نستعرض أولا هذه الصفات :

أولا : المفلوك ضيق العطن نزق :

بمعنى أنه غير سوى الشخصية بل يثور ويغضب لأتفه الأسباب بحكم ما هو عليه خفة وطيش ومرجع ذلك ما هو عليه من ضيق اليد)[1] .

المناقشة :

ولسنا مع الدلجى فى ماذهب إليه من وصفه للفقير بهذه الصفات إلا فى القليل من الناس لعلمنا بأن من الفقراء من لا يشعر بفقرهم أبداً ومن الفقراء من رضى وحلم للرازق ذى القـــوة المتين ولما عليه بعض الفقراء من أخلاق فاضلة هذبها الإسلام ولن نحكم من بعض المصابين ببعض هذه الصفات على الكل وماذا يجيب الدلجى عن قوله بأن أكثر من أصيب بالفلاكة هم العلماء فهل هم أيضاً يحملون ذات الصفات « ضيق العطن والنزق » وهل صحيح أن الفقير سىء العشر منحرف منزو عن الخلق » . .

---

(١) ص ١٤ من كتاب الفلاكة والمفلوكون . .

فمنذ أن خلق الله الخلق وفى الناس فقير وغنى وبعض الفقراء يحمل نفسا كريمة وكرما فى الانفاق ولا يخشى من ذى العرش إقلالا .. وإن سلمنا جدلا بأن هذه الصفات قد يتصف بها بعض الفقراء فإن ذلك قد يكون لإحساسهم بالظلم الإجتماعى لهم ولكن هناك جوانب أخرى لا يصدق عليها التحليل فليس كل الفقراء يضيقون بفقرهم لدرجة ضيق العطن والنزق نعم يحملون صفات أخرى سلبية ولكن لا نرى مع الدلجى تعميم هذه الصفات على الفقراء ..

ثانيا : المفلوك مقهور ومكره[1] :

وأعتقد أن هذه ليست صفة بقدر ما هى سلوك مفروض عليه ويقول الدلجى أنه بقهره وإكراهه يسلك سلوكا خاصا له سلبياته فتجده يكذب فيه خبث وخديعة وفساد الطوية فالفلاكة قهر وإكراه ونشأت عنها تلك الصفات الرذيلة . . وهل هذا صحيح وخاص بالفقراء وحدهم أم أن فئات من الأغنياء قد يحملون ذات الصفات والدلجى نفسه وصف التجارة وأمور الأنشطة الاقتصادية بعامة أنها لا تتناسب مع العلماء لما تحتاج إليه من مكر وخديعة وما شابه ذلك فما بال الفقراء وحدهم فى الميدان ؟ ونحن لا نبرىء الفقراء والمفلوكين ولكن ينبغى أن نكون صادقين فى تحليلنا . .

ثالثا : المفلوك حاقد :

وذلك ناتج عن نظرة المجتمع المتدنية له وعدم قدرته على الانتصار لنفسه ومن ثم عدم قدرته على تعديل هذه النظرة فيتحول إلى حقد ظاهر ودفين . .

---

(١) ص ١٥ من الكتاب . .

ماذا قدم الإسلام علاجا لهذه النظرة :

في الواقع أن الإسلام نهى عن ذم الفقراء والاساءة إليهم بل وأمر بإصلاح حالهم دفعا للحقد الذي يتطور إلى سلبيات لعل أهمها أنه يتحول الفقير إلى مجرم يعبث في البلد فساداً ويرتكب الجرائم الكثيرة كالسرقة وقطع الطريق بغية الانتقام من هذا الموقف السلبي فالإحسان إلى الفقراء والعطف عليهم والحدب المستمر والنظرة ذات الصدق هو المبدأ الإسلامي وهو مبدأ إنساني بدون شك . . . وجعل جزءاً من المال الذي يملكه القادرون حقا مفروضا للفقير ذلك هو « الزكاة » بالإضافة إلى سنة من تشريعات أخرى تكفل للفقير أن يمتص منه الحقد وأن يشعر بالمساواة مع أخيه القادر وأن لا يشعر بالهوة البعيدة بينـه وبين الآخرين بل وأمر بالانفاق التطوعي حتى تتقارب الفئات « كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم »[1] . .

ولم تكن نظرة الإسلام للفقير تقتصر على النظرة المادية بل إنه راعاه في جميع حقوقه « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[2] فقد ساوى بينه وبين الغني في كل شيء بل لقد عاتب الله رسوله عليه السلام عندما هم بترك الفقراء والتوجه إلى الأغنياء مع أن الهدف كان الترغيب في الإسلام ليس إلا وهو هدف نبيل وهو الذي من أجله بعث عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك عوتب في همه ذلك بل وانصرافه إلى الأغنياء « عبس وتولى ان جاءه الأعمى »[3] وكان يردد عليه السلام كثيراً عندما يراه »[4] مرحبا بمن

(١) سورة الحشر : آية ٧ .
(٢) سورة الحجرات : آية ١٣ .
(٣) سورة عبس : الآيات ١ ، ٢ .
(٤) انظر زاد المسير لابن الجوزي — تفسير سورة عبس ج ٩/ ٢٦ .

عاتبني فيه ربي » ويقول الله تعالى « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي . . الآيات »(١) ولذلك مزيد من التفصيل عن ذكر صفة أخرى . .

رابعا : المفلوك حاسد :

الحسد خلق نفسي ذميمة وضيعة وساقطة ليس فيها حرص على الخير فلعجزها ومهانتها تحسد من يكسب الخير والمحامد ويفوز بها وتتمنى أن لو فاته كسبها حتى يساويها في العدم كما قال تعالى « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله »(٢) وقال تعالى « ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونوا سواء »(٣) فالحسد عدو النعمة متمن زوالها كما زالت عنه هو والمتنافس سابق النعمة متمن تمامها عليه وعلى من ينافسه فهو ينافس غيره دون أن يعلو عليه ويحب لحاقه به أو مجاوزته له في الفضل .

وقد يطلق الحسد على المنافسة والغبطة المحمودة كما في الحديث الصحيح (لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله علما فهو يعلمه آناء الليل وأطراف النهار)(٤) متفق عليه . .

قال الدلجي : الحسد من وجوه :

أولها : إذا توالت مقتضيات الغيظ الناتج عن تأجيج الناس له « المجتمع » وعجز المفلوك عن الانتقام تحول لذلك حقداً وضغينة . .

---

(١) سورة الأنعام : آية ٥٢ .

(٢) سورة النساء : آية ٥٤ .

(٣) سورة آل عمران : آية ١١٨ .

(٤) ابن قيم الجوزية - كتاب الروح - ج ٣/٣٤١ - دار الفكر - عمان سنة ١٩٨٤ م .

ثانيها : أنه يعز على المفلوك أن يترفع عليه غيره فإذا أصاب مساو له فى صفات النفس مالا أو جاها وخاف أن يتكبر عليه وهو لا يطيق أن يتكبر عليه ولا نسمح نفسه باحتمال صلفه وتيهه وتفاخره عليه وأن ويستصغره ويستخدمه وعجز عن زوال الفلاكة عنه واللحوق به فى تلك النعمة أحب زوالها عن غيره .

ثالثها : ما يحدث فى نفوس المفلوكين «الفقراء» من دعوى استحقاق ما عند الناس من النعم وغضبهم لها[1] . . .

ويقول د . محمد عبد المنعم جمال حول مرئيات الدلجى لهذه النظرة لدى الفقراء «إن الحرب المقدسة والتى أعلنها الدلجى ليست معلنة على الفقر فحسب بل هى لمحاربة أولئك الذين يحرمون الفقراء من حقوقهم الثروات استناداً إلى عموم قول الله «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير»[2] .

فالفقير يعجز عن أن يكون مؤمنا حقا أو متصفا بالفضيلة أو الإنسانية كما أن الأمة الفقيرة لا تجد نصيراً وتكون عالة على المجتمع البشرى بأكمله بل ويرى الدلجى أن حالة الفقير أشبه ما تكون بحالة المشرك مما يشير إليه الحديث (كاد الفقر أن يكون كفرا)[3] . .

وبتطبيق الدلجى لأصول الإسلام على المستوى الاجتماعى أثبت أن الأغنياء فى مجتمع فقير ليسوا سوى مغتصبين — أو هكذا يراهم الفقير —

---

(١) ص ١٦ من الكتاب .

(٢) سورة الحج : آية ٣٩ .

(٣) أخرجه ابو نعيم فى الحلية ج ٣ /٥٣ ، ١٠٩ ، ج ٨ /٢٥٣ . وانظر موسوعة الإقتصاد الإسلامى للأستاذ محمد عبد المنعم الجمال ص ٤٥ . .

ويقول الدلجي فى ذلك « فمن حق المحروم أن يرى النعم التى بأيدى الناس مغصوبة ومن حق المالك أن يعمل على استرداد ماله من أيدى المغتصبين » ومن ثم كان رأيه أن الفقـــراء مسؤولون على وجـه التحديد ظالمون لأنفسهم و. . . .[١]

خامسا : المفلوك غياب طعان يقع فى أعراض الناس :

وهذه عبارته : (ومنها الغيبة والطعن فى أعراض الناس والغض منهم وذلك أن الغضب والحقد والحسد ثلاثتها من البواعث العظيمة على الغيبة ، فإذا امتلأ المفلوك غضبا وحقدا وحسدا وعجز عن الجرى على مقتضـاها جهارا ومواجهة إلتجأ إلى الغوص على مساوىء خصومه وأعمال الحيلة فى الاطلاع على عوراتهم وضم إليها أكاذيب وتنميقا ونشرها على وجـه الغيبة مرة إرادة الترفع بنفسه بسلامته من تلك النقائض ومرة لاتصـافه بنقائضها الكمالية على سبيل التعريض ومرة ثالثة إرادة صرف الناس عن الاسترسال فى تعظيم خصومه وكفهم عن الإفراط فى الثناء عليهم ومحنتهم بتوقيفهم على ما يوجب تنقيضهم وصرف القبول عنهم ، ومرة رابعـة بتمهيد عذر نفسه من اتصافه بالمساوىء والتناقض بمشاركة العظماء له فى تلك المساوىء — لست وحدى — ومرة خامسة على سبيل التلذذ بالطعن فى الأعراض تشفيا بحب المعذور ثم يتعود لسانه هذه المعصية العظيمة حتى تصير له خلقا وفكاهة ونقلا ويساعده على ذلك إمكانها وتسهيلهـا وعدم اقتصارها إلى أدوات وآلات وكونها عبارة عن نطقة باللسان)[٢]..

(١) موسوعة الإقتصاد الإسلامى ـ د. محمد عبد المنعم الجمال ـ ص٥٤ ـ دار الكتاب المصرى ، دار الكتاب اللبنانى ، القاهرة سنة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .

(٢) هذه عبارات الدلجى بتصرف قليل ص ١٦ ، ١٧ منه . .

والسـؤال :

هل الفقير يتصف فعلا بهذه الصفات ؟

أن من يرى الواقع الذى نعيشه اليوم فإنه يرى أنه ملىء بهذه الصفات — مع الأسف — ولكن تكاد وتكون قاسما مشتركا وليس منشؤها الفلاكة والفقر بل إن لها أسبابا عدة وقد ذكر الدلجى من بينها الذم للتلذذ فحسب وكم من الأغنياء نقصت فيه صفة العلماء فتراه يسب العلماء ويلصق بهم التهم لأن كل إنسان يبحث عن ما يكمله وقد استكمل لهم الغنى فتجدهم يقصون فى أعراض ذوى الخير من الأمراء والعلماء وصالحى الفقراء « العباد » وقل مثل ذلك ممن قلت أخلاقه وسفلت من بعض العلماء الذين لم يصونوا علمهم وهكذا « ونحن لا ندافع عن الفقير » بقدر ما نريد العدل وتنشره حسب الاستطاعة فالفقير وإن إتصف بهذه الصفات كل الفقراء بل أن هناك الفقراء الأخيار الذين تنزل الرحمة بسبب دعائهم فتبين أن تخصيص الفقير بهذه المناقب وسحبها عليه أى على مجموعة فيه كثير من التجنى عليه وخروج عن جادة الحق والصواب . .

سادسا : الفلاكة ستر للمحاسن والكمالات :

فالمفلوك مهما أوتى من حكمه وعلم ومعرفة وفطنة وذكاء وكرم فى الأخلاق إلا أن نظرة المجتمع إليه تغطى على كل تلك الأمور وتبعده وتعريه عن هذه الصفات . . يقول الدلجى (ومنها كون الفلاكة غطاء وسترا المحاسن المفلوك وكمالاته النفسية وأدواته ومعارفه حتى أن الفلاكة تسرى إلى نطقه ومصنوعاته ومقاصده فإما أن يفعل عن محاسن كلامه عن

ظاهره بوجه من التأويل ، وإما أن لا يفهم مراده منه وإما أن يدعى عليه غير مراده وإما أن يدعى فساد قصده وسوء نيته . . . ولكون الفلاكة سترا على المحاسن وعطاءا لها تجد الشهرة والصيت والسمعة يقعن فى غير مواقعها غالبا فرب شخص مشهور بالعلم والصلاح وليس بذلك ورب شخص قعدت عنه الشهرة وهو أحق بها . .)[1] . .

والناس يقبلون على من زالت منه الفلاكة : ويتزلفون إليه بالثناء عليه ونشر محاسنه وجمل من كلامه ويحملونها أكثر مما تتحمل تزلفا لما يعلمون من أن النفوس مجبولة على حب الثناء ووقعت المحاباة والأغماض عن أحواله المدخولة وأفرغت فى قوالب جميلة بالتأويل والأعذار وجاءت المغالطات بالتلبيس والتصنيع فتجىء له الشهرة وليس بذلك . .) . .[2]

ولنا تعليق سريع :

هذه جمل من كلام الدلجى حول هذه النقطة وهى تبين خبرة الرجل فى الناس ودراسته لهم وهى وإن كانت لا تحتاج إلى ذات الجهد الفكرى إلا أن الصياغة الأدبية حولت هذه الفكرة إلى محلل نفسى كبير . .

ونشير هنا إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سأل صحابته عن رجلين أحدهما غنى وآخرهما فقير فقال عليه السلام ما تقولون فى هذا ؟ عندما مر عليهم الغنى — قالوا هذا حرى به إن قال أن يسمع وإن نكح أن ينكح وقال عندما مر الآخر «الفقير» ماتقولون فى هذا ؟ قالوا : حرى به أن قال لا يسمع له وإن نكح لا يجاب إليه ذلك فقال عليه السلام أن هذا خير

---

(١) ص ١٧ من الكتاب .
(٢) ص ١٨ من الكتاب .

من هل الأرض مثل ذاك، أو نحو هذا . ، ذلك لأن الشريعة تأخذ بمبدأ «التقوى» فالمفاضلة بالتقوى فحسب أخذا من قوله تعالى «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[1] فلا الغنى ينفعه غناه إذا لم يتق الله ولا الفقير يضره فقره إذا اتقى الله . .

ومع ذلك فإن هذه النظرة مرفوضة تماما من الشريعة وقد عالجها الإسلام علاجا تاما فهى عن احتقار المسلم لأخيه المسلم (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره . .) الحديث[2] . .

ونهى عن النبذ والتعيير بالفقر أو بغيره وأمر بالرفق بالخدم وضعاف البشر وهم عادة صنف مفلوك (إخوانكم حولكم أطعموهم مما تطعمون وألبسوهم مما تلبسون . . . الحديث) . .[3]

وما يهول به الناس من الصافات الأغنياء وادعاءات كاذبة فإنها سرعان ما تتضح ويبين سهرجها . (فأما الزبد فيذهب جفاءا)[4] ولسنا بهذا ننعى على الأغنياء غناهم . بقدر ما ننعى عليهم أن يحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا وقد ورد فى القرآن ذم الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا . .

ونحن مع الدلجى :

أن هذا مما يثير حفيظة الفقير — أو المفلوك — كما يسميه ويسبب حقداً أو حسداً وربما رغبة فى الانتقام من هذا المجتمع الذى يخفى المحاسن

(١) سورة الحجرات : الآية ١٣ .

(٢) المسند ٣/٦٨ وهو حديث متفق عليه .

(٣) المسند ٥/١٦١ وهو حديث متفق عليه .

(٤) سورة الرعد : الآية ١٧ .

إذ كانت صادرة من رجل لا يؤبه له وذنبه أنه مفلوك فحسب «فكل الصيد في جوف الفرا» والذى قسم الأرزاق قسم العقول فكم مرزوق وهو يحمل عقلا صغيرا وكم مضيق عليه وهو يحمل عقلا وافيا وبصيرة نافذة .» ولهذا قال الحكيم :

كم عالم عالم أعيت مذاهبه
وجاهل جاهل نلقاه مرزوقا
هذا الذى صير الأذهان حائرة
وصير العالم النحرير زنديقا

ولكننا نستبدل كلمة «زنديقا» بكلمة «صديقا» ذلك لأن هذه قسمه الله تعالى هو الذى قسم العقول والأرزاق «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله»[1] . .

والأسوأ من ذلك أن يتجاوز الناس الحد كما قال الدلجى فليلصقوا بالمشهور شيئا ليس له نفاقا له ومداهنة ويطووا البساط عن الشخص الذى يستحق التقدير فيصير منزويا فى زاوية يراقب المجتمع الظالم له الذى يغمطه حقه دون ذنب جناه . وهذه عبارته (ولكون الفلاكة غطاء وستر على المحاسن تجد الشهرة والصيت والسمعة) يقعن فى غير موقعها غالبا فرب شخص مشهورا بالعلم أو الصلاح وليس هناك ورب شخص قعدت عنه الشهرة وهو أحق بها وذلك لأن الفلاكة متى زالت عن شخص تزلف إليه بالثناء عليه ونشر المحاسن عنه وحمل كلامه وفعله من المحاسن والمقاصد بحميلة فوق طاقته وتناقلته الألسنة نزلنا إليه ووقعت المحاباة عن أحواله المدخولة وجاءت المغالطات بالتلبيس والتصنيع)[2] . .

(١) سورة النساء : الآية ٥٤ :
(٢) ص ١٧ ، ١٨ من الكتاب .

سابعا : إن الفلاكة تسبب الآلام العقلية :

يقصد المؤلف بالآلام النفسية ولا شك أن الألم النفسى أشد وقعا على الإنسان من الألم الجسمى لسرعة زوال التعب الجسمى وإبطاء زوال التعب النفسى وكل ذلك بإرادة الله ولما أن المتعب نفسيا لا يستطيع الكسب ولا الإنتاج بخلاف المريض جسديا ثم يطيل المؤلف بكلام فلسفى طويل لا يدخل تحت ما نحن فيه من بحث إقتصادى ونرى من وجهة نظرنا أن المفلوك إذا أصيب عقله وذهنه بانشغال فلا يحسب له حساب ويبقى كما مهملا فى المجتمع بطالا عبئا عليه . .

ولنعد إلى الدلجى لنرى هذه الآلام بعد رحلته الطويلة حول التحليل الفلسفى الذى لا يدخل نطاق بحثنا يقول عن الآلام :

الألم الأول :

تشوفهم وتشوقهم إلى المكارم والمعالى ومد أعناقهم إليها)[1] ونحن مع الدلجى فى أن هذا يتسبب فى الألم النفسى إذا لم يستطيع المفلوك تحقيقه فتراه دائما فى تفكير وحزن حيث لم يدرك مناه ومراده وفى هذه الحالة ينصح الدلجى هؤلاء المفلوكين بأن (لا يشتغلوا بما هو ليس فى مقدورهم فإن هذا اشتغال بما يلهيهم عن البحث عن تدبير أمور فلاكتهم)[2] وأعتقد أن للقارىء سؤالا مؤداه أن كل إنسان عليه أن يطمح للمعالى وكل معنى جميل فكيف تصد الفقير عن المجادلة فإنه إن لم يفكر فى مثل هذه الأمور فسيبقى حلس بيته ولزق أرضه ؟ فالجواب أن الطموح مطلوب لكن الذى

---

(١) ص ١٨ من الكتاب .

(٢) ص ١٩ من الكتاب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تتفق مع الدلجى عليه هو أن طموحاتهم تشبه الخيال فهم يتمنون ويطمحون شيئا لا يمكن تحقيقه وحالتهم من الفلا كما لا تخفى أما وهم يستطيعون أن يرتقوا السلم شيئا فشيئا فنحن مع القارىء . .

الألم الثانى :

(تألمهم بذكر نقائصهم الواقعة منهم أحيانا بحكم البشرية وأعظم مصيبة عليهم إضافة إلى النقائص الموهومة أو المكذوبة إليهم وهم منها براء)[1] وقد تحدثت عن هذه الفقرة حديثا مختصرا عند ستر المحاسن فلا أعيد ما قلته هناك . .

والألم الثالث : ألم الانفراد :

يقول المؤلف (وثالثهما : ألم الانفراد مع أن الإنسان مدنى بطبعه لا يمكنه أن يستقل بنفسه منفردا عن غيره بحيث لا يستعين بأحد فى حاجاته وضروراته بل لا قوام لا حواله إلا بالتعاون حتى أن الرغيف من الخبز لا يصير رغيفا إلا بآلات وأعمال تفتقر إلى صناع كثيرين كثرة بالغة . . . والمفاليك يلزمهم الانفراد لزوما لا انفكاك لهم عنه)[2] . .

ولنا تعليق :

يمكن القول بإيجاز بالغ : أن هذه المقولة تضمنت الكثير من المسائل منها ما هو ذو طبيعة إقتصادية ومنها ما هو ذو طبيعة غير إقتصادية ومنها ما هو غير ذلك . .

---

(١) ص ١٩ من الكتاب .
(٢) ص ٢٠ من الكتاب .

(أ) فأما عن احتياج الساعة أى سلعة فى إنتاجهـا إلى العديد من الآلات والأعمال والكثرة البالغة من الصناع فهذا حق من جهة ويعتبر كشفا إقتصاديا متقدما من جهة أخرى يسجل للدلجى حيث أبرز أهميـة وضرورة التخصيص ويقسم العمل وتشابك الأعمال والصناعات . .

وهنا تبرز لنا مسألة هامة بل وأساسية فى دنيا الاقتصاد فكرا وتطبيقا وهى ضرورة الاهتمام بالتعاون بين الأعمال والمهن من جهة وضرورة توفر التخصص من جهة أخرى . .

(ب) أما عن أن الإنسان مدنى بطبعه لا يمكنه الاستغناء بنفسه فى اشتباع حاجاته فهى أيضا مسألة جديرة بالتقدير ولها دلالة إقتصادية ذلك لأن فيها الإشارة إلى أهمية التعاون وكذلك أهمية للتبادل . . ولكن كون الفلاكة — الفقر — تجعل الفرد منفردا إنفرادا لا فكاك له منه ، وكون ذلك يحقق ألما عقليا للمفلوك فنحن معه أن ترتب الألم صحيح إذ حياة أى إنسان وهو فى عزلة عن غيره تسبب له الألم النفسى بالاضافة إلى المتاعب الاقتصادية الأمر الذى لا يخفى على الإنسان . .

لكن هل يلازم المفلوك الانعزال والإنفراد فهذا ما يحتاج لمناقشة مع الدلجى .. إن عملية العزلة الكاملة والمطلقة غير واردة حيث لاحياة معهامهما كانت نوعية الحياة ، ولكن يمكن أن نفهم كلامه على أن المفلوكين يكونون فئة هامشية بعيدة عن التأييد والتأثر من الإنفصال بالحياة الإقتصادية المحيطة بهم وهذا فيه قدر كبير من الصواب كما هو مشاهد الآن وكما هو متعارف عليه علمياً الآن . .

وإذن يكون للدلجى فضيلة الكشف المبكر أو التعرف الرائد على تلك الظاهر محذراً مما لهـا من سيء الآثار . .

ثامناً : الفلاكة تؤدى إلى البطالة والعمل غير المنتج :

هذه المسألة هامة تستحق وقفة مع الدلجى لنرى كيف انتهى إلى هذه النتيجة . .

رؤية الدلجى :

يرى الدلجى أن الفاليك ـ الفقراء ـ بعجزهم عن المعاش الطبيعى فإنهم يلجأون إلى أعمال عقيمة يتكسبون منها ومن الحرف العقيمة وذلك نتيجة لعدم استطاعته الوصول إلى العمـــل الطبيعى لكسب قوته اليومى هو وأسرته أو لسهولة الاكتساب عن طريق الشعوذة وانخداع الناس البسطاء بمثل هؤلاء . .

وإن تناول الدلجى لهذا الموضوع يكسبه منزلة عالية فى عالم الفكر الإقتصادى وذلك لنواح عديدة منها :

١ — أن مجرد إشارته إلى أن هناك أعمالا طبيعية فى الكسب والنشاط الإنتاجى وأعمالا غير طبيعية تعتبر إسهاما كبيراً حيث أنه بذلك قد لفت الأنظار مبكراً إلى ماقد يشيع فى العالم الراقى من الكثير من الممارسات والأنشطة التى هى فى ظاهرها وهى فى الواقع غير ذلك . .

وجاء الفكر الوضعى فيما بعد وتناول بتفصيل هذه المسألة . .

٢ — من أمثلة تلك الأعمـــال غير الطبيعية فى الكسب والتنجيم والكيمياء وبالطبع فليس المقصود بالتنجيم دراسة الفلك المعهود حاليا فهذه مطلوبا شرعا حيث أن النجوم مسخرة « والشمس والقمر بحسبان والنجم

والشجر يسجدان »[1] فعلينا دراستها والإفادة منها فى تيسير حياتنا ، ولكن المقصود ما كان شائعا من قبل من حيث استخدام النجوم فى أعمال السحر والشعوذة ومعرفة الطالع والذى عليها الحديث (أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر فمن قال مطرنا بنوء كذا وكذا فهو كافر ومن قال مطرنا بفضل الله ورحمته فهو مؤمن »[2]، وكذلك الأثر : « كذب المنجمون ولو صدقوا »[3] .

ولا شك أن الاشتغال بمثل تلك الأعمال هو من الناحية الإقتصادية غير منتج وغير مفيد بالإضافة إلى ماله من آثار ونتائج شرعية وخيمة حيث تنقل صاحبها إلى الكفر والإشراك بالله . . وكذلك الحال فى الكيميائيات فإنها فى السابق عملية تزييف الأشياء وليست من علم الكيمياء المعهود حاليا .

— الدلالة ليست من الأعمال غير الطبيعية :

ولكن إشارة الدلجى إلى « الدلالة » وتصنيفها ضمن الأعمال العقيمة فهذا مأخذ نأخذه عليه لأن الدلالة هى السمسرة بالمعنى المتعـــارف عليه فى المصطلح التجارى أو الكومسيون أو الوساطة وهى مهنة لابد منها لأى تجارة وقد أثرها الإسلام بل إن المصطفى عليه السلام نادى بنفسه على حلس وقعب لأحد الصحابة الذين علمهم طريقة الكسب المشروع وسماه العلماء « بيع من يزيد » حيث قال عليه السلام من يشترى هذين قال أحد الصحابة

---

(١) سورة الرحمن : الآية ٦ .

(٢) متفق عليه ــ انظر شرح السنة للامام البغوى ٤١٩/٤ .

(٣) قد بحثت عنه كثير فى الكتب الحديثة ولم أجد فهو مشهور لدى عامة الناس .

أنا آخذهما بدرهم فقال عليه السلام « من يزيد » فقال أحد الصح
آخذهما بدرهمين فباعهما عليه السلام[1] .

فإدخال الدلالة تحت الأعمال الصدفية والوهمية والظنية والكسب
الطبيعي من أعجب ما فعله الدلجي إلا أن كان يقصد مصطلحا آخر
مصطلح الدلالة بمعناه الإقتصادى المتعارف عليه بين الناس على أننى ل
مصطلحا بهذا المعنى رغم محاولتى البحث حتى يكون للمؤلف العذر .
نهى عليه السلام أن يبيع حاضر لباد ثم قال عليه السلام (أى لا يك
سمسارا)[2] ، وقد سمى المصطفى عليه السلام التجار تجارا بعد أن
يسمون سماسرة قبل ذلك حيث قال « يا معشر التجار »[3] .

ولا يعنى هذا التقليل من شأن الدلالة بل إنها مهنة شريفة وقد ما
الرسول عليه السلام وأقرها بين صحابته بل لا بد للتجارة منها قديما وحد
وربما تكون الدلالة فى عهد الدلجي لها حيلها وطرقها الملتوية التى ت
الشريعة والكسب الطبيعى وإذا كان الأمر كذلك فعلا فإنه كان على ا
أن يبحث عن الحل الصحيح دون اللجوء إلى إدخالها ضمن الكسب
الطبيعى ...

٣ — لكن ما الذى يدفع الإنسان إلى القيام بتلك الأعمال العقيم
هو العجز عن ممارسته الأعمال الطبيعية فى الكسب ؟ يرى الدلجي ذلك
يكون صادقا من خلال واقعه ، ولكن يمكن أن يقال أيضا أن ذلك

---

(١) صحيح البخارى ومسلم — ٤/٣٥٣ ، ٣/١١٥٥ .

(٢) متفق عليه — وانظر الكلام عليه فى التلخيص الحبير لابن حجر ٣/١٦ .

(٣) المسند ٤/٦ ، ٢٨٠ ، وموارد الظمآن ١/٢٦٩ .

الذرائع إلى الكسب السريع كما قدمنا ـ دون عناء أو مشقة تذكر ولا سيما والناس كثيراً ما تنطلى عليهم الحيلة ، والبهـــرجة ومع ذلك فهو لا يدل أبداً على عجزهم عن القيام بالأعمال الطبيعية كما قاله الدلجى وإلا لا التمسنا لهم العذر فى انصرافهم إلى ذلك حيث أعيتهم الحيل عن الكسب الطبيعى ولو حصل هذا فعلا لكان على ولى الأمر أن يهىء لهم عملا شرعيا شريفا بعيداً عن المكاسب المحرمة التى تقع فيها الفقير إذا كان ذلك اضطراراً ولكن بالتأكيد أنه ليس مضطراً إلى ذلك أبداً بل هو بطوعه واختياره يميل إلى هذه الأعمال العقيمة رغبة فى الكسب والربح السريع لسرعة تهافت الناس عليه وجهم للبذل تحت تأثير هذه الخزعبلات وإلا فلو أن المجتمع قاطع أمثال هؤلاء المشعوذين لما كانت لهم سوق رائجة يخدعون بها السذج من العوام وربما بعض المثقفين . .

٤ ـ ثم أن الدلجى قصر هذه الأعمال العقيمة على المفلوكين وهو كلام غير مقبول منه ذلك لأن هذه الممارسات تدر عائداً وأموالا طائلة بالطبع فإن الذى يتوقع أن يمارسها هم الأغنياء قبل الفقراء ومعنى ذلك أن شيوع مثل هذه الأعمال لا يقتصر على المفاليك من جهة ولا يتوقف على العجز عن ممارسة النشاط الإقتصادى الطبيعى من جهة أخرى . .

وإن أردنا أن نستدل من واقعنا اليومى فإننا نرى مئات من أمثال تلك الممارسات الشاذة تحت أسماء مختلفة لا يمارسهـــا الفقراء بل الطبقات الطفيلية فى المجتمعات . .

تاسعا : ولوعهم بالأسفار ومخاطرتهم بنفوسهم فيها مع ما فيه من من العذاب المذاب :

قال صلى الله عليه وسلم (السفر قطعة من العذاب)[1] .

ويرجع الدلجى سبب أسفار المفلوكين (أنه متى استولت عليهم الفلاكة فى بلد واضطرب فى إرجائها وتسكع فى طرق معاشها وذاق طبائع أهلها ..... وأبت تلك البلد عليه إلا نبوا ودفعا ومخالفة عن المطلوب ومل وجورها لاخير فيها فحينئذ يظن أن بقاءه فى تلك البلد مستحيل والبلد الثانى يظن به الخير فيجب حينئذ السفر . . ولكن موجبات الفلاكة مصاحبة له فى أى بلد فيكون كمن قصده شخص لقتله بالسيف وهو على سطح عال فيرمى بنفسه إلى الأرض وإن كان ذلك أحد الطريقين فى هلاكه)[2] . .

ولسنا مع الدلجى فى هذا فإن خبرة السابقين واللاحقين أن التنقل والأسفار من بلد إلى بلد هو من وسائل إبعاد الفقر والإملاق فينصرف فى بلاد الله الواسعة على حياة جديدة وإذا كانت تجربة الدلجى شخصية حسبما جاء فى ثنايا كتابه فإن السفر لا يعنى الإفلاس دئما كما أنه لا يعنى المجد والغنى دائما إذن فولوع المفلوك بالسفر من أجل تنمية زوال فلاكته وفقره وهذا محمود منه وإذا اتصف بهذه الصفة فليست صفة سلبية كما أراد الدلجى إلصاقها به وأنها تماما كمن يقع من السطح عند رؤيته من يلاحقه فهذا هلاك

(١) صحيح ابن حبان ٤/١٧٠ ، تاريخ بغداد ٩٤/١٠ .

(٢) ص ٢٢ من كتاب الفلاكة والمفلوكون

محقق ولكن السفر وإن كان قطعة من العذاب كما ورد عن الرسول عليه السلام فإن النتيجة فى أغلب الأحيـــان محمودة أو على الأقل تكون النتائج أن المفلوك بذل الجهد فى كل مكان حيث اضطرب فى أرض الله وفعل ما عليه فيستريح قلبه وترتاح لمـا أنه بذل الجهد وأدى ما عليه من طلبه للرزق فى كل أرض الله . . .

مناقشة الدلجى فى الصفات السابقة

وإذا كنا قد ناقشناه مناقشة شبة تفصيلية أثناء حديثه عن كل صفة فإننا نرى من المستحسن أن نزيد فى المناقشة سطور أخرى . .

(أ) الدلجى قدم الوصف ولم يقدم العلاج :

فى الواقع أن الصفات التى أوردها الدلجى تتسع وتمتد لتشمل نواح عدة اجتماعية ونفسية وعقلية وإقتصادية والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هل الفقراء يتسمون بهذه الصفات دون غيرهم أم أن هذه الصفات ألصق بهم من غيرهم ؟ فلعل الدلجى يصف واقعا عاشه وشاهده أو لعل الدلجى قام بعملية وصفية لظاهرة معينة شاهدها بعينه ولعل بحثه ونظرته هذه كانت شبه ميدانية لكنها لاتصل للإستقراء المتتبع الشامل . .

وكنا نود أن لوقام الدلجى بعملية تفسيرية وتوجيهية لها ولم يقتصر على الوصف بل تعداه إلى العلاج وهذا ما لم نجده عند الدلجى رحمه الله . .

(ب) ليس كل فقير مذموم :

ومن ناحية أخرى فعلينا أن نفرق بدقة بين الفقر أو الفلاكة وبين الفقير أو المفلوك فإذا كان الفقر مثلا وضعية وحالة مذمومة فليس بالضرورة أن يذم الفقير وأن يوصف بأقذع الصفات كما فعل الدلجى ، فالفقر فى نظرنا كالمرض فلا أحد يحب المرض أو يمدحه ومع ذلك فليس من المعقول أن يذم المرضى وقل مثل ذلك بالنسبة للفقراء . . غاية الأمر أن الفقير أو المفلوك ينظر فيه إلى سبب فقره أو فلاكته فإن كان فقره ناتجا عن غير تقصير أو تفريط منه فلا يلام بل يكرم ويعان وإلا فهو محل لوم

وعتاب بل ولا يستحق التقدير بل هو كم مهمل بل هو نشاز يعيش على فتات الآخرين . . وهذا ما ذمه الاسلام حيث نهى عن العطالة والبطالة وشجع على العمل ودعا إليه . .

(ج) المجتمع يساهم فى الفقر :

وفى الكثير الغالب نجد أن من أسباب فقر الفقراء هو المجتمع نفسه وخاصة الفئة الغنية التى تتسلط على الآخرين من الضعفاء كالأجراء والمزارعين وأصحاب الحرف الصغيرة وإذن فتلك جريرة مجتمع وليست جريرة فئه فقيرة أى أن الفقر غالبا ما ينشأ عن ظلم من قبل الغير .

(د) ولم يشر الدلجى إلى ظلم المجتمع للفقير :

والعجيب أن الدلجى لم يشر إلى هذا الجانب إلا اشارات يسيرة عند حديثه عن الأسباب للمعاش — نشير إليها فى حينها — مع أهميته فى الموضوع بل صب جام غضبه على الفقراء والمفلوكين أنفسهم قائلا أنهم هم السبب فى جلب الفقر .. بيد أنه أشار إلى أن من ضمن الصفات للفقراء تلك الصفات الذميمة التى ألصقها بهم نابعة وناتجة عن نظرة المجتمع إليهم واقرأ مثلا صفة « احتقار الناس لهم . . وأن الفقير مكره ومقهور . . . . ولكن تحليله كان قاصراً على غير عادته . .

(ه) عود على بدء :

وإن كان لموقف الدلجى هنا من أهمية ذات بال فهو ذم الفقر والفلاكة والتنفير منها لكنه يقدم لنا الدراسة المقنعة — بالبديلة — كعلاج لهذه المشكلة بل عرى الفقر والفلاكة ولم يفعل شيئا بعد ذلك .

والموقف الإسلامى للفقر أصح وأعمق مما فعله الدلجى فهو يفرق بين الفقر والفقراء ، فالفقر وإن ذم إلا أن الفقراء لا يذمون مطلقا بل ينظر إلى سبب فقرهم — كما قدمنا — فإن كان فقرهم بأيديهم وبسببهم فهم محل ذم (اليد العليا خير من اليد السفلى)[1] وإلا فهم محل رعاية وعطف ويوجه الحديث للمجتمع الذى يعيشون فيه بإعطائهم حقوقهم كاملة غير منقوصة بل والقيام بواجبهم ورعايتهم حتى تزول فلاكتهم أو تخف حدتها .

(و) هفوة من الدلجى :

وفى تقديرى أن تلك النظرة من الدلجى حول تحامله على الفقير تحسب تعتبر أكبر هفوة أو خطأ وقع فيه فى مناقشاته وبحثه ولا أدرى ما الذى جعله ينحو هذا المنحى — فهل كان الفقراء فى عصره فقراء برغبتهم وبسبب منهم ؟ وهل كان الأغنياء فى عصره يقومون بواجبهم على النحو المطلوب ؟ أم أنه شغل فحسب بتسجيل وضع وظاهرة معينة لفئة من المجتمع دون أن يعنى بالتعرف على منشأ المشكلة وما هم فيه وكيفية التخلص منه ؟ هذه أسئلة ولا نقصد بها الحصر بقدر ما نقصد منها أن النظرة المتحاملة على الفقير لم تكن موفقة حين ناقشها الدلجى بالكيفية التى عرضناها :

(ز) وقصور آخر : وأين الآثار الاجتماعية والاقتصادية السلبية ؟

كذلك من جوانب القصور لدى الدلجى فى معالجته لهذه المسألة عدم تعرضه للآثار الاجتماعية والاقتصادية السلبية التى قد يقع فيها الفقير كالجرائم المالية مثل السرقة والنهب وقطع الطريق وما يتبع ذلك من

---

(١) متفق عليه — تحفة المحتاج رقم ١٠٠١ ج ٢ ، البخارى ١/ ٣٠ ، مسلم ٤ ١٨٠٣ .

إخلال بالأمن وإرهاب للمجتمع وتحول بعض الفقراء إلى قطاع طرق وبالتالي يكونون هم السبب في نبذ المجتمع لهم وكراهية لهم .... وقديما أقدم الفقراء في عهد عمر على السرقة لحاجتهم لا حبـــا في السرقة لأن الإسلام داخل نفوسهم فكان هذا سببا في درء حد القطع عنهم بل وكان هذا التصرف سببا في قول الخليفة لسيدهم — وكانوا مملوكين أرقاء — إن سرقوا مره أخرى قطعت يدك أنت فهذا جانب من حماية أموال الناس وفي نفس الوقت جانب من الزجر للمتسبب نفسه وهو هنا ليس الفقير بل هو المجتمع الظالم له[1] ، وكانت هذه القصة عام الرمادة — عام الرمادة — عام المجاعة — في السنة السابعة عشرة للهجرة ... ولم يكتف الفاروق بهذا بل حمل سيدهم قيمة الناقة مرتين تعزيرا له قائلا إنك تجيع عمالك ..

وسلبيات أخرى للفقر لم يذكرها الدلجي :

١ — الفقر خطر على العقيدة :

وبخاصة الفقر المدقع وبالأخص إذا كان هو الساعي الكادح فهو وسيلة الشك في حكمة الله في الكون ولارتياب في عدالة التوزيع والشيطان يوسوس للفقير (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء)[2] ، ولهذا روى عنه عليه السلام (كاد الفقر أن يكون كفراً)[3] ، (اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر)[4] وتعوذن الفقير والكفر مرتبطين ..

---

(١) انظر د. يوسف القرضاوي في كتابه الإسلام ومشكلة الفقر ص ١٣ — ١٨ . بتصرف كثير ..

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦٨ .

(٢) صحيح ابن حبان — رقم ١٨٢١ - ٣/١٨٣ عن أبي هريرة .

(٣) ص ٥١ من كتاب الكسب : محمد بن الحسن الشيباني — ومسند أحمد ٣/٥ ٣٠ .

٢ — الفقر خطر على الأخلاق والسلوك :

وإذا كان الفقر خطراً على العقيدة فليس بأقل خطورة على السلوك والأخلاق ولهذا قالوا « صوت المعدة أقوى من صوت الضمير » وقد بين عليه السلام شدة وطأة الفقر على صاحبه وأثره فى سلوكه حيث قال (خذوا العطاء مادام عطاء فإذا صار رشوة على الدين فلا تأخذوه ألستم بتاركيه تمنعكم الحاجة والفقر)[1] وإذا استدان الرجل حدث فكذب ووعد فأخلف . . ولا يستدين إلا من حاجة ماسة غالباً . .

٣ — الفقر خطر على الفكر :

روى عن الإمام بن الحسن أن الجارية أخبرته يوما فى مجلسه أن الدقيق فقد فقال لها قاتلك الله لقد أضعت من رأسى أربعين مسألة من مسائل الفقه . . وروى عن الإمام أبى حنيفة أنه قال « لاتستشر من ليس فى بيته دقيق » أى لأنه مشتت الفكر مشغول البال فلا يكون حكمه سديداً . والأصل فى هذا حديث الرسول عليه السلام (لا يقضى القاضى وهو غضبان)[2] وقاس الفقهاء على الغضب شدة الجوع وشدة العطش . .

٤ — الفقر خطر على أمن المجتمع :

وسلامه واستقراره وقد روى عن أبى ذر قوله (عجبت لمن لا يجد القوت فى بيته كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه ؟ . .

وقد يصبر المرء إذا كان الفقر ناشئاً عن قلة الموارد وكثرة الناس لكن

---

(١) فيض القدير للمناوى ٣/٤٣٥ - ورمز له السيوطى بالصحة .

(٢) المسند للامام أحمد بن حنبل ٥/٣٧ .

إذا نشأ عن سوء توزيع الثروة وبغى بعض الناس على بعض وظهور الترف في جانب واحد فهذا مما يثير كوامن الفقير البغو في أركان المحبة بين الناس والإخاء الود . .

٥ — الفقر خطر على الصحة العامة الجسمية والنفسية :

لما يتبين عادة من سوء التغذية وسوء التهوية وسوء السكن والصحة النفسية لما يلازمة عادة من الضجر والقلق والسخط ولما ينشأ عنه عادة من الأمراض لقلة ذات اليد فلا يستطيع القيام بقيمة الدواء وقيمة العمليات في المستشفيات سواء التي تعالج البدن أو التي تعالج الصحة النفسية فيكون عرضة لأمراض الدرن ونحوه من الأمراض المقيمة في الجسم وتحتاج إلى علاج مستمر دائم ومعلوم أن الدواء من الصيدليات وغيرها يبالغ في سعره وكذلك أسعار الأطباء وخاصة إذا كان يحتاج إلى سفر عن بلاده فمن أين للفقير بتكلفة السفر ومصروفات العلاج ولهذا تكثر في الدول المستشفيات المجانية مساعدة للمرضى الفقراء ومساهمة منها في بذل الأمن الصحي مجانا حتى يرتاح المواطن . .

الفلاكة المالية والفلاكة الحالية

الترابط الوثيق بين الجاه والمال :

سبق علمي :

تناول الدلجي موضوعا هاما وخاصة من الناحية الإقتصادية والإجتماعية فقد بين أن المفلوك « الفقير ماليا » هو أيضا « فقير حاليا » بمعنى أن المال والثروة تورث الجاه المركز الإجتماعية وهما بدورهما يجلبان الأموال والثروات بينما فقدان المال لا يقف عند مجـــرد فقده بل ليتعداه إلى فقر وفقد الجاه والمركز الإجتماعي وفقرهما يعود على المفلوك بالمزيد من الفلاكة . . وقد وضح الدلجي ذلك بقوله « إن المال ملك الأعيان والمنافع والجاه ملك القلوب واستسخار أصحابها فى الأغراض والأعمال لما فيها لذى الجاه من اعتقاد الكمال والالتفات إليه . . والمفلوك لاجاه له ولا مال وكل من لاجاه له ولا مال له فهو مسلوب القدرة »[1] . وهكذا نجد المفلوك نادراً ما يحقق مراده ومقصوده إلا بالإستعانة بغيره ثم يضيف الدلجي قائلا « إن الغنى تتسارع إليه الناس لقضاء حوائجه ومطلوباته عكس الفقير فإنها تتباعد عنه حيث لا مأرب لها فيه ولا غرض »[2] ، والدلجي يترجم بهذا بلغة علمية اقتصادية ميل الناس إلى المال وصاحب المال وما يورث من جاه لديهم وترجم الشعراء ذلك بقولهم :

رأيت الناس قــد مالوا ... إلى من عنـــده مـال
ومن لا عنـــده مـال ... فعنه النـاس قد مـالوا

(١) ص ٥٦ من الـكتاب .
(٢) ص ٥٧ من الـكتاب .

والمقامة الدينارية للحريرى[1] توضح وجهة الناس نحو حبهم وميلهم لصاحب المال . .

وهذا حق شائع فى دنيا الناس فانظر مثلا الأجهزة والمؤسسات تسارع لتلبية مطالب الأغنياء فتزداد غنى على غنى ومن ثم جاه على جاه بينما تحجم عن مساعدة الفقراء فتزداد فقراً على فقره . .

والعجيب أن الدلجى فى تناوله لهذه الظاهرة الخطيرة بين أنه غالبا ما لا يدرك الأفراد من هؤلاء الأغنياء أى شىء مما أملوه ورجوه . .

ومعنى ذلك ضياع المزيد من الثروة خاصة لو نظرنا لى ما يسببه هؤلاء من إطلاق وتفليس للكثير من الأجهزة والمؤسسات . .

كذلك فإن الأغنياء وذوى الجاه يتداولون الأموال فيما بينهم فهم بهذا يبتعدون عن الفقراء إلا فى استعمالهم فى مجال الخدمات الصغيرة التى لا تعود على الفقير بجدوى كبيرة . .

وهكذا نجد الدلجى وقد وضع أيدينا على إحدى الظواهر الإقتصادية المتقدمة أنها ظاهرة الترابط الوثيق بين المال والجاه ـ وهو فى هذا غير مسبوق ـ على حد استقرائنا وعلمنا ـ اللهم إلا من إشارات وردت فى هذا الموضوع فى مقدمة ابن خلدون ، ومقامات الحريرى . .

ولنا تعليق :

ونختم صفات المفلوكين بمناقشة المؤلف رحمه الله بأننا وإن وافقناه

(١) مقامات الحريرى ـ المقامة الثالثة ـ المسماة بالدينارية ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ بشارع محمد على بمصر ـ د . ت .

على هذه الصفات فإنها صفة عرضية فهى صفة للفقير نفسه لا صفة للفقير ذلك لأن الفقر عارض ثم يزول فالله عز وجل يعطى ويغنى ويفقر فكم من غنى أصبح فقيراً لصق بالتراب وكم من فقير أصبح غنيا والله يؤتى المال من يشاء اختباراً وابتلاءاً فالفقر اختبار والغنى اختبار أيضا فهل يقال إن الصفات تلازم الشخص ملازمة الظل أم أنها تلازمه حالة فقره وتزول حالة غناه والحق إن شاء الله . أن الدلجى أوفى الموضوع حقه فى ذكره هذه الصفات الملازمة للفقير حالة فقره . .

ولكن الدلجى مع ذلك عرى الفقير وجعله كما مهملا حاقداً حاسداً متمنيا زوال نعمة الآخرين عنهم متمنيا زوال هذه الأحوال الطيبة عن الناس وانقلاب الأمور وهذا مبالغة منه فإن كان فى بعض الفقراء فلن يكون فى كل الفقراء ، ولئن كان فى الفقراء هذه الصفات فغيرهم أيضا يتصفون بهذه الصفات فهل يقال أن الفقر هو منشأ هذه الصفات ربما !!!

الفصل الثالث

أسباب الفقر والفلاكة



من المسؤل عن الفقر

تحدث الدلجى فى القسم الأول من كتابه عن الفقـــر والفقراء وعن مظاهرهما وآثارهما . .

ولكن ماذا عن أسباب الفقر وهو جانب أساسى خطير وهام فى الموضوع الذى يتحدث عنه الدلجى فما هى العوامل المسؤولة عن سيادتهمـا وتفشيهما فى الجنس البشرى ؟

وقد تنبه الدلجى إلى هذا الموضوع الهام ولم يفته أن يتناوله بالدراسة والبحث وهى دراسة اقتصادية بحته وأدخل ضمنها أسبابا إجتماعية .

الفلاكة غالبة على الجنس البشرى :

يرى الدلجى أن الفلاكة «الفقر» غالبة على الجنس البشرى وأن الكثير من بنى الإنسان إما عند مستوى الإملاق أوفوق ذلك بقليل .

ترى ما هى أسباب ذلك ؟

ذكر الدلجى أسبابا عديدة على النحو التالى :

(الثروة والغنى أما أنها موروثة أو مكتسبة . أما المكتسبة فمصادرها ومجالاتها هى الإمارة والتجارة والفلاحة والصناعة)[1] .

---

(١) ص ٥٣ من الكتاب .

أولا : التجارة

يتحدث الدلجى فى كتابه الفلاكة والمفلوكين عن التجارة وقال أنها لكى تنجح لا بد من الآتى :

أولا : — السيولة النقدية :

فالتجارة تحتاج إلى رأس مال كبير ليساعد على دوراته ، وهذه نظرة ثاقبة بالسيولة تهم الدورات التجارية ورجال الأعمال بل هى مجال سير أعمالهم ، إذ هى التى بواسطتها يستطيعون تنمية الأسواق ، وتغذية التجارة بصفة مستمرة . .

ثانيا : — دراسة السوق ومتابعته :

يرى الدلجى أن الأمور فى السوق لا تيسر كلها فى البيع والشراء بنظام واحد ، بل أن هناك بضائع تكسد وبضائع تباع بسرعة [١] ولا شك أن هذه الفكرة من أهم الأفكار الاقتصادية إذ يشير إلى وجوب دراسة السوق ومعرفة البضائع والانتقاء ومحاولة ذلك لا تتم إلا بالاستمرار فى السوق الكسب والخبرة الميدانية . .

ثالثا — فكرة البضائع الموسمية :

ينصح الدلجى التجار أن يسرعوا فى بيع تجارتهم الكاسدة فقد يأتى لها يوم تتحسن فيه فإن ما لا يحتاجه الناس اليوم قد يحتاجونه غداً وهكذا عن فكرة البضائع الموسمية للدورة فى كل موسم . .

---

(١) ص ٥٣ من الكتاب .

رابعا — التنويع فى البضاعة :

أشار الدلجى إلى نقطة هامة للتاجر : وهى أن عليه تنويع بضاعته وكثرة العرض للنماذج حتى إذا كسد نوع سار النوع الآخر فيكون الربح سببا فى تغطية التكاليف بسرعة . .

خامسا — الخبرة والدراية :

يقول الدلجى : وأيضا فهى — أى التجارة — تحتاج إلى بصيرة تامة ودراية وافية وتجزبة كاملة ليؤمن بها غش الباعة وخلاتهم - أى خداعهم - وترويج السماسرة كواسدهم ومفتقرة إلى فراسة صادقة وحدس صحيح ليضع كل سلعته فى حاق — أى مكان — موضعها زبونا وسوما وترخيصها وإغلاء وحلولا وتأجيلا أو تعجيلا ، ونفوس الناس غالبا ظلمانية لخلوها عن العلوم العقلية والأعمال الرياضية فهى بعيدة عن البصيرة . .

سادسا — التدرج فى التجارة وعوائقه :

يرى الدلجى أن السيادة الكسبية — كما سماها — لاتصير دفعة واحدة وإنما تكون بالتدريج ، ومكايدة تنميتها ، ومعالجة زوال مواقعها مع كثرة الصادين عنها والعوارض العائقة عنها أمر عسير بطىء السير فيقضى الانسان شطر عمره أو معظمه فى فلاكة وادبار [1] . .

ومن عوائق التجارة أيضا :

شراء السلطان الغاشم وحاشيته فلهم سلطتهم فهم كالغاصبين للتجار .

---

(١) الفلاكة والمفلاكون ص ٥٥ .

لقربهم من الملك وحامية الدولة وخاصة المخادعين بالاستدانة والأرباح الكاذبة والمواعيد الباطلة والرهون غير المملوكة والالتجاء إلى الاعسارات والحيل الشرعية والاستعانة بشهود الزور ووكلاء السوء وربما تكون على التاجر الماهر فأفقد . وأعاقه عن أمثاله من التجار حتى أتى على رأس ماله[١] وهذا التحليل الجيد العظيم من الدلجى يبين أهمية الأمن والاستقرار اللذان هما شرط أكيد لنجاح التجارة ، وذهاب الخوف عن التاجر أمكن في النماء وأكد في الاستقرار ولذلك ذكر القرآن ذلك في منته على قريش « لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف »[٢] . .

ومن هذه الدراسة التحليلية عن التجارة في رأى الدلجى نلخصها في عوامل ثلاثة :

العامل الأول : توافر قدر كبير من رأس المال :

يستطيع الإنسان به أن يلج وجوها عديدة من التجارة ولا يقتصر على وجه واحد منها حتى إذا أكسد وجه جبره وجه آخر فلا يضيع رأس المال . . أو بعبارة أخرى تنويع الأعمال لتقليل فرص الخسائر من جهة وتوفير السيولة من جهة أخرى حتى لا يضطر لبيع شيء أبان كساده . . هذا عامل أساسي لقيام النشاط التجارى الناجح ولكن كما يقول الدلجى فإن أيدى الناس خالية عن الأموال القابلة لما وصفناه غالبا وهذه عبارته : « فالتجارة مفتقرة إلى مادة متسعة ورأس مال كبير يدار في وجوه الأرباح والتثمير ويوزع على أنواع المتاجر لينجبر كساد بعضها بنفاق الآخر

(١) الفلاكة والمفلوكون ص ٥٤ .
(٢) سورة قريش : الآيات ١ ، ٢ .

وليستعان بالنافق على إدخار الكاسد ارتقابا لحواله الأسواق واستدراراً للنفاق »(١) . .

العامل الثاني : العنصر البشري :

وهذا يتطلبه النشاط التجاري فلا بد من ضرورة توفر الكفايات والمهارات التجارية لدى الإنسان أو بمعنى آخر عنصر الخبرة والدراية والمعرفة إذاً أن التجارة تحتاج إلى توافر القدر الكبير من ذلك ، كما أنها في حاجة إلى قدرة كبيرة على التنبؤ والتوقعات والعمل والتفكير للمستقبل ووضع الاحتمالات ودراسات الجدوى الاقتصادية وإدخال ذلك تحت الحسبان والدراسة المستمرة ، وهذا العامل قل أن يتوفر لدى الناس لغلبة الجهل عليهم وأميتهم في العلوم العقلية والرياضية والاقتصادية ، وهذه عبارة الدلجي : « وأيضا فهي محتاجة إلى بصيرة تامة ودراية وافية وتجربة كاملة ليؤمن بها غش الباعة وخلابتهم ومفتقرة إلى فراسة صادقة وحدث صحيح ليضع كل سلعة في موضعها »(٢) . .

العامل الثالث : المناخ الاجتماعي والسياسي والاداري السائد :

فإن التجار لا يمارسون أعمالهم من فراغ وإنما يمارسون التجارة في وسط معين هذا الوسط غالبا غير متلائم أو غير متناسب وذلك بوجود السياسات الاقتصادية وغيرها التي هي عادة ما تكون في غير صالحهم وهذه عبارة الدلجي « ونفوس الناس غالبا ظلمانية لخلوها عن العلوم العقلية والأعمال الرياضية فهي بعيدة عن البصيرة وأيضا فالأيدي الغاصبة مستولية

---

(١) ص ٥٣ من كتاب الفلاكة والمفلوكون .

(٢) ص ٥٣ من كتاب الفلاكة والمفلوكون .

على التجار لمقهوريتهم مع الدولة وخاصة المخادعين بالاستدانة »(١) . .

هذه هى العوامل الثلاثة أو المقدمات الثلاث التى يجب توافرها فى قيام النشاط الاقتصادى التجارى الفعال وهى كما ذهب الدلجى غير متوفرة ومن ثم فإن التجارة لم تعد بابا للثروة والغنى إلا إذا توفرت أسبابها وتشح الأسباب عند الأغلبية من الناس . .

ثانيا — الزراعـــة

تتطلب الزراعة مقومات عديدة قل أن تتوفر للمزارع ومن ذلك :

(أ) ملائمة المناخ : من برد وحر ومطر وهواء وكوارث سماوية وكثيرا ما تكون تلك العوامل غير ملائمة . .

(ب) لابد من ملائمة العوامل الأرضية « التربة » .

(جـ) كذلك مقاومة الآفات والحشرات الضارة بالزراعة : وهـــذه عبارة الدلجى .

(د) عامل اقتصادى هام : ثم هناك عامل اقتصادى هام جداً نبه إليه الدلجى ويعتبر منه إسهاما فعالا فى المجال الإقتصادى وهو : أنه عدم ملائمة أسعار المنتجات الزراعية إذ أن رخصها مع غلاء البذور والتكاليف المختلفة تؤدى إلى اضمحلال الزراعة وهذه عبارته : « ومن رخص البقول والخضروات وما فى معناها مما لا يقبل الإدخار مع غـــلاء بذرها وإلجاء

(١) ص ٥٤ من الكتاب .

المزارعين إلى بيع زراعتها فى حال كسادها وعدم رواجها »[١] . .

وهذ عامل هام نوافقه عليه ولا يزال هذا العامل مستمراً حتى عصرنا الحاضر . .

(ه) وكذلك الجبايات والمظالم والضرائب والرسوم التى تفرض على المزارعين مما يجعل النشاط الزراعى غير مجدد وغير مرغوب فية وهذا عامل هام أيضا وخطير . . وهذه عبارته : « تسليط الظلمة عليهم واستعبادهم وتوسيع شروط مقاسمتهم وفرض الفرائض والتفنن فى وجوب الجبايات وأنواع الظلامات مما يفوت عليهم الأعمال الكمالية المصلحية »[٢] . .

إذن لابد من :

تأمين السياسات الزراعية والضريبية الملائمة للنشاط الزراعى حتى تساهم فى إغناء الأفراد وإبعاد شبح الفقير والإملاق عنهم . .

ولاشك أن الدلجى قد أصاب كبد الحقيقة عند ما نبه على تلك العوامل وكأنه يقول لكل مجتمع إذا ما أراد الزراعة والنهوض بها أن يلاحظ تلك العوامل الهامة وخاصة منها مايتعلق بالسياسات السعرية والضريبية . .

فتبين :

(ا) أن رخص الأسعار للمواد مثل البقول والخضروات يؤثر فى المواد المنتجة . .

---

(١) ص ٥٤ من كتاب الفلاكة والمفلوكون .

(٢) ص ٥٤ من كتاب الفلاكة والمفلوكون .

(ب) أن الضرائب المفروضة كلما زادت نسبتها فإن ذلك يؤثر على المواد المنتجة على الريع « العائد » . .

(ج) أن احتكار الحكومة لبعض المنتجات والإستيلاء عليها له أثر سلبي على نشاط المزارع والمواطن حيث تأخذهما بأسعار غير مجزية . .

(د) أن الحضارة والتمدن لها أثر على طلب المواد الزراعية المنتجة . .

(هـ) أن العلم والخبرة والتقنية لهما أثر على الزراعة وعلى المواد المنتجة . .

سبق آخر :

وقد تنبه الدلجى أن من أسباب تدهور الزراعة أن الدولة لا تستخدم العلوم ولا تحاول أن تستفيد منها لأن العلم من أهم عوامل التقدم الإنسانى وكذلك التكنولوجيا والتى تعتبر من مستلزمات التقدم الفنى سواء فى الزراعة أو فى غيرها وحتى أنه يقاس تقدم الدولة بمدى استخدامها للعلم والتكنولوجيا وأنها المعجزة للعلامة الدلجى فى اكتشافه أثر العلم فى الزراعة قبل أن يكتشف ذلك علماء الإقتصاد فى العصر الحديث بقرون عديدة .

وسبق على آخر نراه هاما وننبه عليه هنا :

أن هذه المعالجة لشؤون الزراعة بل تعداه إلى محاولة العلاج وأوصى بذلك الحكام بالنية الحسنه بالاتجاه نحو دراسة تلك العوامل التى ذكرها دراسة جادة والعمل على علاجها وهذا يعتبر فى نظرنا سبقا علميا تصدى له الدلجى بوضوح وجلاء . .

مالم يتحدث عنه الدلجي فى الزراعة :

١ — لم يتحدث عن أثر الزراعة فى الاقتصاد القومى . .

٢ — لم يتكلم عن علاقة كل من الصناعة والتجارة والزراعة . .

٣ — لم يبين مقدار الدخل من الزراعة بيد أنه تكلم عن أثر الضرائب على الزراعة . .

٤ — لم يشر إلى الثروة الحيوانيـــة وهى جزء خاص هام للمزارع فى أيامه حيث لم تكن الميكنة موجودة بعد .

٥ — لم يتبين نوع تدخل الدولة فى الشؤون الزراعية . .

ومع ذلك :

فإنه يمكن أن يجاب على هذه التساؤلات بأن الدلجى هدف من حديثه عن الزراعة أنها طريق من طرق التكسب والمعاش وحث الفرد عليها ليس إلا ؟ .

ثالثا — الصناعة

ذهب الدلجى إلى أن الصناعة لم تعد بابا يصلح للغنى والثروة وذلك لأنهـا :

(أ) تتطلب مهارات معينة وقل أن تتوفر لدى الكثير من الأفراد إضافة إلى أنها .

(ب) كثيرة الفساد ورواجها غير مجد وهذه عبارته : « وأما الصناعة فلقلة الماهر فيها وعلى الجملة فالصنائع شاغلة لأصحابها عن الدعة والراحة

والرفاهية ويطرقها الكساد كثيرا ونفاقها لا جدوى له ولا يحظى صاحبها بطائل وأصحاب الصنائع باذلون فهم وعبوديتهم بأقل قليل للفقير والغنى المسلم والذمى فهم بمراحل عن الشهامة وعلوا الهمة والأنفة »[١] . .

المناقشة :

هذان سببان أو عاملان ذكرهما الدلجى لعدم جدوى الصناعة ونحن نقول أنه إذا كان من السهل أن نوافق الدلجى على رأيه فى ضرورة توفر المهارات اللازمة للصناعة ، إلا أنه من الصعب موافقته على أن الصناعات كسادها كثير ورواجها قليل . . اللهم إلا إذا كان هذا هو الحال فى عصره ولا نعتقـــد ذلك أيضاً وخاصة إذا ما انصرفت الصناعات إلى الحرف الصغيرة . .

وينبغى أن تكون مناقشتنا للدلجى من عصره أما مناقشته من خلال العصور اللاحقة كعصرنا فقد تغير مفهوم الصناعة وتحول إلى مفهوم كبير واستقل مفهوم الحرف اليدوية البسيطة وهذا هو مفهوم الصناعة فى عهد الدلجى إذ هى فى الواقع حرف يدوية يقوم عليها أشخاص عاديون يتصفون ببعض السلوكيات ذات النوع الملتوى الذى لا يتناسب وجدوى الحرف وليس هذا فى الحرفيين كلهم وإن كان الكثير منهم يتصف بصفات سلبية كإخلاف الموعد وجحد المتاع ونسيانه وما شابه ذلك . .

(١) ص ٥٤ من كتاب الفلاكة والمفلوكون .

رابعاً : فقد التناصح والتعاون

عامل هام أشار إليه الدلجى وهو فى الواقع مبدأ إسلامى « وتعاونوا على البر والتقوى » ، « وأمرهم شورى بينهم » ، (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله) الحديث .. وغير ذلك من النصوص الدالة على التعاون والتناصح وعدم أكل أموال الناس بالباطل ويقصد الدلجى التعاون فى جهات المعاش الثلاث (التجارة — والزراعة — والصناعة) وأنها تفتقر إلى هذا العامل ويتأسف الدلجى لزوال هذا العامل وحل محله التباغض والتحاسد والتنافس والغش والاثرة الخ وهذه عبارة الدلجى : « ثم جهات المعاش الثلاثة مفتقرة إلى التعاون والتناصح وقد انقطعا من كافة البشر أوعامتهم لاتساع موجبات التباغض والتماقت بكثرة مقتضيات الحسد وليحلو له كل واحد الآخر عن مراده الناشئة من الكبر والعجب والعداوة وفوق الإزدحام على مطلوب واحد »(١) ..

خامساً : سوء الإنفاق وعدم الرشد فيه

وهذا عامل آخر لا يقل أهمية عن تلك العوامل السابقة وهو عدم توفر السلوك الإقتصادى الرشيد تجاه مايدخل للفرد من أموال فتصرف الفرد فى دخله محكوم بعوامل وشهوات بعيدة كل البعد عن الرشد الإقتصادى فهو صرف سفيه فى بعض الأحيان يذهب صبابة مايحصل عليه الفرد ..

الدخل أكبر من الإنفاق الجارى الإستهلاك :

ويرى الدلجى ونحن معه : أن الدخل يجب أن يكون أكبر من الإنفاق

(١) ص ٥٤ من الكتاب .

ولكن الواقع شيء آخر حيث أنه : كلما زاد الدخل زاد الإستهلاك :

وزيادة الإستهلاك لزيادة الدخل قد تكون شيئاً طبيعياً وقد تكون نتيجة عوامل غير رشيدة وعلى أية حال فالواقع الذى يصفه الدلجى وهو أنه كلما تجدد للإنسان دخل جدد له صرفا وإنفاقا ، وهو أمر متفق عليه بين كل الناس عامة والإقتصاديون بصفة خاصة . .

ولكن ماهى العوامل المسؤولة عن زيادة الإنفاق : نتيجةلزيادة الدخل ؟

سؤال طرحه الدلجى وأجاب عليه بقوله أنها عوامل عدة وهذه عبارته :

« وأيضاً يقال على وجوه المعاش الثلاث أنه كل ماتجدد الإنسان دخل جدد له صرفا أما للمباهاة والترفع على أمثاله أو إفراطا فى الشهوات أو خوفا من سوء القالة بتنقيص ما يقتضيه حالة أو بإكراه مبغض لتلك النعمة عليه »(١)

أى أنه كلما تجدد للإنسان دخل جدد له صرفا أما :

(ا) للمباهاة والترفع على أمثاله .

(ب) أو إفراطا فى الشهوات .

(ج) أو إنهماكا فى اللذات .

(د) أو خوفا من سوء القالة وإلا حدوثه بتنقيص ما يقتضيه حاله .

(ه) أو بإكراه مبغض لتلك النعمة عليه .

(و) أو لأن الحالات المتجددة فى دخله يلزمها تجدد فى أمور صرفه .

وهذه الأمور الستة التى لايقصد بها الحصر فى الإنفاق يترتب عليها أن يبقى الشخص مفلوكا مهملا شؤون دخله . .

---

(١) ص ٥٥ من كتاب الفلاكة والمفلوكون .

سادساً : عامل الزمن

يضاف إلى ما تقدم عامل هــام أخير هو عامل الزمن فلا يتأتى الغنى ولا تتحقق الثروة عن طريق هذه المصادر إلا بعد فترة قد تطول من الزمن وهذه عبارة الدلجي: « وأيضا فوجوه الجدو السيادة المكتسبة لاتصير دفعة واحدة وإنما تكون بالتدريج والترقى ومكابدة تنميتها ومعالجة عوال مواقعها مع كثرة الصادين عنها والعوارض العائقة لها أمر عسير بطيء نقيض الإنسان شطر عمره أكثره أو معظمه فى فلاكة وإدبار »(١) . .

هذه هى الإعتبارات التى جعلت الدلجى يرى أن هذه المصادر الطبيعية للمعاش لاتمكن الإنسان عادة أو غالبا من تحقيق الثروة والجاه . .

سابعاً : الأمـــارة

فهى لا تمثل مصدراً للثروة والغنى لما تتطلبه من كثرة النفقات وهى من أوجه المعاش الطبيعى ولكن الدلجى لم يتعمق فى بحثها ولكنه أشار إلى أن السالك فى شئون الولاية كثيراً ما يحتاج إلى الإنفاق على الذين يفدون عليه وينتظرون منه العطاء بحكم مركزه وقيادته ومنصبه فلهذا يفلس سريعا ويفتقر لأنه لا يستطيع الإعتذار عن العطاء فدخله يقل عن خرجه وهذه عبارته : « وأما الامارة فلا ينكر أن مبادئها مشتملة على نصيب وافر من الفلاكة والإدبار وبيان ذلك أن الأمر لاتتم إلا بالعصبية والتغلب والشوكة وقمع المعاند والجاحد وتأليف القلوب المتفرقة وتمهيد المسالك والقيــام بحقوق لاتحص كثرة معاناة شدائد ومشاق وتعريض النفس للمهالك وكراء ...

---

(١) ص ٥٥ من كتاب الفلاكة والمفلوكون .

الجند مستعبدون مع مليكهم مشغولون به عن أنفسهم مقدمون على مراده. ولو سلم أن السلطنة والأمارة خالية من الفلاكة فهى من القسم النادر »[١].

وقد أضاف سببا آخر فى فلاكة من يعشق الأمارة والولاية من أن الأمارة وجه من وجوه المعيشة لا يتم إلا بالمعصية والشوكة وقمع المعاند وبطبيعة الحال يحتاج هذا إلى أموال كثيرة إضافة إلى السبب الأول فمركزها الإجتماعى جيد إلا أن مركزها المالى والعائد المادى قليل جداً لا يستفيد منه هذا الوالى ونعتقد أن الدلجى استفاد هذه الفكرة من واقع المنازعات الدائمة والمستمرة بين المماليك بعضهم بسبب اعتلاء عرش مصر . .

ثامناً : وجوه المعاش غير الطبيعى

يرى الدلجى أن ما تقدم وجوه معاش طبيعى أما عن وجوه المعاش غير الطبيعى كالاسترزاق بالنجوم والكهانة وسائر الأرزاق الهوائية الخطفية الصدفية فهى الأخرى لا تمكن صاحبها من تحقيق الغنى والثروة وذلك لعدم انتظامها ولأن من يعملون فى تلك الأعمال هم أئمة المفلوكين عبر الدلجى بقوله : « وأما غير الطبيعى كالاسترزاق بالكيمياء والتنجيم وسائر الأرزاق الهوائية الخطفية فهى أرسخ قدما فى الفلاكة والأدبار لأنها بمنزلة اللقطة والعثور على دفائن الأرض فى لعدم انتظامها ووفاء محصولها »[٢] . .

---

(١) ص ٥٥ من كتاب الفلاكة والمفلوكون .

(٢) ص ٥٥ من الكتاب .

تاسعاً : وجوه الكسب الموروثة

يرى الدلجى أن المال الموروث عرضة للنهب وللضياع سواء على أيدى الولاة والحكام أو على أيدى القائمين عليه من الوصاة وناظرى الوقف والمشرفين على الأيتام لعدم توفر الدراية والخبرة لليتيم والمحافظة على ماله وتنميته لو سلم له وأيضاً لسهولة صرفه لعدم تحمله مسئولية كسبه والمشقة فى جلبه وهذه عبارة الدلجى : « أما الموروث فيطرقه أنواع من الفلاكة — الفقر — منها :

١ — امتداد أيدى الولاة والحكام إليه .

٢ — ومنها مذلة اليتيم — الوارث — وخضوعه وفقده نصيحة أبيه..

٣ — ومنها سهولة صرف ماله عليه لعدم تحمله مشاق جمعه وتشجعه نصب الحبائل فى تحصيله فيشرع فيه بالسرف والتبذير والسفه لعدم مهارته ودربته عن الوفاء بمقاصد ماله والقيام بشروط تنميته وتثميره قليلا قليلا إلى أن يضمحل ويتلاشى ولم يحصل منه إلا على الملامة والتحبير والندم . .

٤ — ومنها إنكار المنكرين وكونه فى رنعة مورثة ومستحقا لمن كان يعاون به مورثه ويساعد عليه فلا يؤمنون على دعائه ولا يساعفونه على قصره ولا يسيرون معه سيرة مورثه ، فيقع من ذلك العناء العظيم والداء العقيم وبهذا التقرير يعلم أن الفلاكة غالبة على نوع الإنسان كاسبا أو وارثا »[1] . .

---

(١) ص ٥٥ ، ٥٦ من الكتاب .

عوامل أخرى مسؤولة عن نشوء الفقر

وبعد هذه الرحلة مع الدلجى حول وجوه الكسب لنا كلمة :

أنه ولئن صدق الدلجى فى تحليله لبعض العوامل السابقة المسؤولة عن الإعانة على وجوه الفقر والفقراء وخاصه ما يتعلق بالعوامل الاقتصادية فى المجالات التجارية والزراعية والحرفية إلا أن تحليله فيما يتعلق بالعوامل الأخرى محل نظر بالاضافة إلى عدم تناوله العوامل كثيرة هى فى الواقع مسؤولة فى الدرجه الأولى عن نشوء الفقر ولها أهميتها ونذكر منها مايلى :

١ — الكوارث الطبيعية :

كالجدب والفيضانات والبرد الشديد وغرق السفن والمطر المتواصل والحر الشديد . .

٢ — المعاصى ومن أكبرها : « الربا »

فإذا تعامل التاجر بالربا محقت البركة منه والله يقول « يمحق الله الربا ويربى الصدقات »[1] فالربا كبيرة وهو من الموبقات المهلكات والله لا يخلف وعده فما نرى من إفلاس الشركات والمتاجر والحكومات يوما بعد يوم نتيجة وجود التعامل الربوى وما نراه من أمراض نفسية فى المجتمع عقاب للربا وخاصة الأمراض النفسية وما نراه من إسراف وبذخ وازهاق ناتج عن التعامل بالربا فهو يدخل تحت قوله تعالى « يمحق الله الربا »[2] ومن

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٧٦ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٧٦ .

المعاصى أيضا بل ومن أكبرها أيضا منع الزكاة فإذا امنعت الزكاة حبس الله القطر عنهم — أى المطر — حتى يتوبوا إلى الله ولا شك أن حبس المطر عن الناس فيه ضرر عليهم ولولا البهائم لم يمطروا . . والمطر هو الرزق يقول تعالى « وفى السماء رزقكم وما توعدون »(١) ويقول تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء »(٢) ولا شك أن من يمنع زكاة ماله وهى ركن من أركان الاسلام عاصى الله وغير متق له بل أن ولى الأمر ينبغى عليه أن يستتيبه ويجبره على أداء الزكاة فإن امتنع قتل وقد حارب أبو بكر الصديق ما نعى الزكاة واعتبرهم مرتدين عن الإسلام . . وهكذا كل معصية تزيل نعمة من النعم وبعكس ذلك فكل طاعه تزيد النعم ويبارك للمسلم فيها فالتقوى إذا فقدت من المجتمع نزعت منه البركة وحل عليه الجوع والمرض وغير ذلك نتيجة المعاصى . .

٣ — تظالم الناس فيما بينهم واستئثار القوى بحق الضعيف . . وهذا مشاهد فى الأمم المسلمة وغير المسلمة فالإنسان جبل على الطمع وحب الذات والأنانية المفرطة والمادية ومحاولة جمع الأشياء والكم دون نظر إلى محتاج أو ضعيف فيسحب البساط عن أخيه دون أن يكترث وهذه النظرة غير إسلامية وغير شرعية جاءت للمسلمين من معاصيهم أولا وعـدم اهتمامهم بأوامر الشريعة وتعمقت بعد ذلك فى المجتمع الإسلامى الحديث نتيجة للانفتاح الفكرى والاقتصادى على الدول المادية الكافرة التى لا تؤمن إلا بالشىء والكمى ولمن يستطيع تحصيله فأخذ المسلمون هذه البدعة ونقلوها إلى مجتمعهم ونسوا وجوب الاهتمام بالمسلمين وأنهم جسد واحد وجسم واحد وأن المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله . .

(١) سورة الذاريات : آية ٢٢ .

(٢) سورة الأعراف : آية ٩٦ .

وأن الأمة لا ترزق ولا تنصر إلا بالضعفاء وأن الإسلام دين العدالة الإجتماعية والتكافل المادى فلهذا كثر الفقراء فى بلاد المسلمين كثرة تلفت النظر ولقد كانت فى العهود السابقة هذه الظاهرة أقل بكثير نتيجة التطبيق الإقتصادى الإسلامى الراشد فبنى المجتمع المادى اليوم أفكاره الإقتصادية وسلوكه الاستهلاكى على الأثرة والاستبداد لا على الإيثار والعطف وصدق التوجه إلى الله فى التخفيف عن حاجة الفقير أو المسكين بل تركوه يلصق بالأرض ولم يحسوا بذلك بل لم يعتبروه إنساناً كفؤاً لأن يعيش معهم فهذه الذئاب الظالمة سرعان ما تفشل وتتحول إلى ذئاب فاترة يهدها الفقر والعدم نتيجة لعدم إهتمامها بضعيفها . .

٤ — الحـــروب :

وهى سبب رئيسى من أسباب الفقـــر فكثرتها لا يخلف إلا الدمار للممتلكات والأنفس فيكثر اليتامى والنساء الأرامل والشيوخ الكبار فى السن وتزهق أصول الأموال وتتحول الدولة إلى دولة فقيرة فى رجالها مسؤولة عن شعب ما بين إمرأة مسكينة لا حيلة لها وصبى صغير يتيم أو حدث لا يبلغ الرجال أو شيخ طاعن فى السن أما الشباب فقـــد التهمهم الحرب ، أما المال فقد ذهب مع الشباب أما المساكن فأنقاض أما الموارد الاقتصادية ومصادر الرزق الرئيسية فقد دمرت وأصبحت هـذه الدولة دولة فقيرة تعيش بين دول فاجرة ظالمة هى التى كانت السبب فى هـذه الحروب . .

٥ — النكسات الإقتصادية :

ولا شك أن من خير ما يساعد المرء بعـد الله هو دراسته لجـدوى المشاريع والإستشارات الإقتصادية قبل البدء فى أى مشروع تجارى فإن

ثبتت جدواه أو قدم عليه واستخار الله فى ذلك وإن لم يكن توقف وانتقل إلى عمل آخر فإن لم يدرس المرء أى مشروع قبل الإقدام عليه فإنه سرعان ما يفشل لعدم وجود التخطيط والمشى بخطى مرسومة نتيجة الخبرة الذى أخذها من غيره ممن سبقه من بيوت الخبرة فالنكسات الاقتصادية كثيراً ماتهز الدول والشركات وبالتالى يتأثر الأفراد كل على حسبه فيصبح الأغنياء فقراء فى لحظة واحدة وهذا مشاهد فى الواقع فكثير من المحلات التجارية والشركات تعلن إغلاق محلاتها نتيجة النكسات الاقتصادية التى تهز مركز التاجر المالى فقد يخاطر فى بورصات مالية كبيرة لا خبرة له بها أو قد يشترى استوكهات كثيرة طمعا فى أن يبيعها بسعر جيد وهكذا لا يصدق حدسه ولا يجد المشترى فيضطر إلى البيع بأى ثمن ومن ثم يشهر إفلاسه ..

٦ — العاهات الخلقية :

وهذا من الله جل وعلا ولا راد لقضائه وقدره وهو إبتلاء واختبار لهؤلاء وللناس جميعا . . فالزمن — بكسر الميم — والأعرج — والمعوق بصفه عامة فى غالب الأمر لا يستطيع أن يكسب عيشه فهو فى الواقع ضعيف يحتاج إلى المجتمع الذى يعطف عليه فيأتيه الفقر والفلاكة من هذه الناحية هذا أن نسبة المجتمع وإن لم يستطع أن يخرج بحرفة خاصة به وغالبا ما نجد المعوقين خيراً من بعض الذين ليس بهم بأس فتجده له حرفة وتجده لا يقبل أن يعيش عالة على غيره وتجده يطرق أبواب الرزق مزاحما الصحيح من الناس كتفا بكتف وما هذا إلا لينفى الفقر عن نفسه ومن هنا قيل « كل ذى عاهة جبار » ومع ذلك فهناك الذين لا يستطيعون الحصول على أبسط أمور الحياة المادية . .

٧ — كسل الإنسان :

بعض الناس يأتيه الفقر نتيجة غروره وكسله وبطالته الطبيعية فيه وحبه للاتكالية أن يعيش عالة على غيره فتصيبه الفلاكة والفقر إختيارا من نفسه . . وبعبارة أخرى أنه إذا استطاع أن يأتيه رزقه منا من السماء فلن يقصر فى ذلك والقعود له إلا من فهم معنى وجوده فى الحياة وأنه مستخلف من الله فيها لعمارتها والمشى فى مناكبها طالبا للرزق . . وهذا فى الواقع مشكلة المشاكل وأن كثرة مثل هذا فهى سبة وعار على المجتمعات فينبغى أن لا يحترم أمثال هؤلاء بل لا يشجعوا بل أن ينفوا من المجتمع ويحقروا ولقد فعل هذا عمر بن الخطاب وضربهم بالدرة قائلا لهم (اطلبوا الرزق فإن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة) وسماهم المتآكلون على الله ، واحتقر أيضا الشاب الذى ليس له حرفة بل وسقط من عينه فهذا سبب عن أسباب الفقر جلبه الانسان لنفسه وجدير به أن يبقى فقيرا دائما معدما حتى يتجرع كأس الاملاق حسب ما اختاره لنفسه فهو شخص حقير وكم مهمل حمى الله المجتمعات من أمثال هؤلاء . .

٨ — إبتلاء الإنسان من الله :

وهذا سبب آخر من أسباب الفقر وهو سبب إلهى يقول تعالى : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات »[١] فهذا اختبار من الله لعباده الفقراء وهل يصبرون على فقرهم وهو اختبار آخر لعباده الأغنياء هل يؤدى واجبهم نحو فقيرهم وضعيفهم فالفقر والحالة هذه اختبار وامتحان وكذلك الغنى إبتلاء واختبار فمن

---

(١) سورة البقرة : ١٥٥ .

رضى فله الرضى ومن سخط فعليه السخط . . ومع ذلك فلا يجوز للمسلم أن يقف هكذا وعليه أن يبحث عن مخرج من هذه القلة ولا يجوز له أن أن يمد يديه إلى الناس ليسألهم فعليه أن يعمل فهكذا علم المصطفى عليه السلام صحابته والمسلمين جميعا حيث باع حلس الصحابى وقعبه وأعطاه قيمتهما قائلا اشتر بالآخر قدوما فأتاه به فجعل فيه عصا وقال له اذهب فاحتطب ثم عاد الصحابى وقد كسب عشرة دراهم فقال له عليه السلام هذا خير لك من أن تسأل الناس أعطوك أو منعوك) . .



الفصل الرابع

العلماء أكثر الفئات تعرضاً للفلاكة



سؤال طرحه الدلجى قائلا : من هم أكثر الفئات تعرضاً للفلاكة ؟ وأجاب عليه بقوله أنهم العلماء وخصص لذلك فصلا من فصول كتابه للإجابة عليه . .

ومبررات ذلك عند الدلجى :

(أ) ـ أن مجالات التكسب والاغتناء هم بعيدون عنها .

ـ فالإمارة عنهم بمعزل .

ـ والتجارة بما فيها من سلوكيات غير مرضية لا يمارسونها .

ـ وكذلك الزراعه والصناعة . .

إذن فأحد عوامل فقر العلماء فى نظر الدلجى هو ترفعهم عن الاشتغال فى مجالات النشاط الإقتصادى المختلفة . .

ولم يعجب الدلجى هذا الموقف :

فوصف العلماء بأنهم بفعلهم هذا وبتعطيلهم مجال النشاط الإقتصادى الطبيعى بما يلى :

الوصف الأول :

أنهم يتعللون بالأمانى الكاذبة ويتركون العمل الإقتصادى فيتجرعون الفاقة والاملاق دائما ويلازمهم ذلك »[1] . .

---

(١) ص ٣٦ من كتاب الفلاكة والمفلوكون .

ومو قفنا : أن ماذهب إليه الدلجي غير صحيح : ولا يستحق الوقوف عنده إلا بقدر ما نناقشه عليه ذلك :

أولا : لأن العلماء من أقدر الناس بحمد الله على العمل بل ومن أعرفهم بالله وبهدى رسوله ﷺ ولقد قرأ العلماء جميعاً كتاب الله وما يحث عليه من العمل الإقتصادى ومافى الإنفاق من خير فى جميع وجوهه ولا إنفاق بجميع ضروبه إلا إذا توفر المال والعلماء أحرص الناس على تنفيذ موجب قوله تعالى « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة »(١) فلماذا لا يستجيب العلماء وهم فى جملتهم أهل الإيثـــار لا أهل الاستئثار والعلماء تدبروا قول الرسول ﷺ (أفضل الكسب كل بيع مبرور وعمل الرجل بيده وأن نبى الله داود كان يعمل)(٢) .

وغير ذلك من الأحاديث الشريفة ولهذا اتجهوا من واقع ما آمنوا به واعتقدوه إلى العمل بأيديهم فمنهم من جاهد فى سبيل الله وكسب الغنيمتين الدينية والدنيوية ذلك لأن الرسول عليه السلام قال : (جعل رزقى تحت ظل رمحى)(٣) . وقال العلماء بعد ذلك أن أفضل المكاسب على الإطلاق ما كان من الجهاد فى سبيل الله لأنه هو مكسب رسول الله صلى الله عليه وسلم)(٤) . .

ثانيا : من أجل هذا نجد الكتب المترجمة لهم رحمهم الله تعج بنسبتهم

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٤٥ .
(٢) تقدم تخريجه .
(٣) المسند ٣/٥٠ ، ٩٢ .
(٤) المجموع شرح المهذب للنووى ٩/٥٨ ــ مطبعة الإمام القاهرة ــ (د ت) .

إلى الحرف التى يعملونها ولن يجـــدوا فى ذلك ضيراً فهى مكسب حلال أرادوا به أن يبتعدوا عن الأموال والمكاسب التى توقعهم فى شبه المـــال الحرام . . فهذا عالم ينسب إلى بيع القرض والجلود وللدهن والسمن والبز والبزد وتلك القائمة الطويلة التى لو نظر لهـا الباحث لوجد أن العلماء لم يتركوا حرفة إلا وطرقوها وذلك حسبه منهم لله وحرصا على أن يعملوا بأيديهم حتى يكون كسبهم أكثر حلا . .

ثالثا : ثم من أين الدلجى هذا الوصف للعلماء بأنهم انصرفوا عن التجارة ولن أعمل إحصائية لعدد التجار ولكن حسبى أن أشير إلى خيار الخلق من العلماء وأولهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وصحابة رسول الله ﷺ فى جملتهم وخاصة فى المدينة النبوية أمامه يعملون فى التجارة كعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وهؤلاء من جلة العلماء وخيارهم ثم انتقل إلى العصور الأخرى وانظر إلى الإمام الزاهد عبد الله بن المبارك والإمام الشهير الليث بن سعد ثم الإمام مالك ثم الإمام — أبو حنيفة — ثم الإمام البخارى صاحب الصحيح وابن الجصاص الذى كان من أثرى العلماء .

وحتى كتابة هذه السطور لايزال العلماء بحمد الله يزاولون النشاط الإقتصادى الطبيعى إن فى متجرهم وإن فى حرفهم ولك أن تسعد كثيراً بذكر قصة الإمام سفيان الثورى رحمه الله حيث سئل : لماذا تشتغل فى التجارة قال : إن هذه اللماعة تقينا وتحمينا من تمندل الملوك بنا » فكيف جاز للدلجى رحمه الله وعفا عنه أن يصف العلماء بهذه الصفات ويبعدهم عن واقع الحيـاة الإقتصادية والعجب أن جميع ما شغب به الدلجى حول العلماء لم يكن فقيه موفقـا وسيرى القارىء ذلك بمشيئة الله تعالى .

ثم قال إن سلوكيات التجارة غير مرضية فإن الإسلام طهر مافى التجارة من غش وخداع واحتكار وعلماؤنا المتمسكون عندما يتاجرون فهم من أطهر الناس وأحرصهم على أن يتعاملوا المعاملة التى تناسب دخول المتقين لله فى هذا المسلك فانظر إلى الإمام البخارى حين كان تاجراً جاء أحد المشترين فاشترى منه بضاعة ولم يدفع شيئا سوى أنه نوى شراءها وتأخر إلى الغد فزادت التجارة التى اشتراها هذا التاجر مثلها فى الغد فسلم البخارى الربح للتاجر بعد أن باعها ولم يأخذ من الربح شيئا فهذه هى التقوى فى التجارة وأبو حنيفة كان يبين للناس المشترين منه عيوب السلعة حسب توجيهات الإسلام وغيرهما .

وكنا نود أن العلماء كثروا فى سوق إذ لكان السوق سوق المتقين ولخلى من العابثين المتربصين والخدعة . .

الوصف الثانى :

قوله : أن العلماء يتوقعون الخير من الناس وأنهم سيقدرونهم ويعرفون فضلهم ولكن الناس عنهم لاهون[1] :

المناقشة :

أما أن العلماء يتوقعون الخير من الناس ولهذا ينتظرون منهم لقمة العيش ففى الواقع أن هذا سبب واضح للعلماء وتعيير لهم بما ليس فيهم إذ أن الدلجى الآن بهذا الكلام يرمى العلماء — وقد حماهم الله — بأنهم يستغلون علمهم واحترام الناس لهم للصيد المادى ولسنا مع الدلجى فى أن

---

(١) ص ٣٦ من كتاب الفلاكة والمفلوكون .

الناس لاهون عن العلماء إذ أن الناس يحبون العلماء ويرغبون إليهم لا عنهم ويسألون عن ما يحتاجون إليه من أمور دينهم وأعتقد أن الناس لم يدر بخلدهم ما دار بخلد الدجى من أن العلماء ينتظرون الأجر المادى على ما يبذلونه وعلى أنهم أصبحوا علماء سبحان الله العظيم ما هذا التفكير المتدنى للدجى ولماذا وصلت به الحال إلى رمى العلماء بهذا المنقصة وأنها سبب لفقرهم فمن هو العالم الذى جلس بيته وانتظر من الناس أن يهدوا الهدايا له ويصرفوا عليه دون أن يكون له سبب إلا أنه طالب علم ؟ . . ومن هم الناس الذين لهوا عن العلماء ولم يحترموهم . . . ؟ وهذا التوقع من الدجى توقع فى غير محله — وكان الأولى به وهو من العلماء — أن يترفع بالعلماء وينزلهم منزلتهم للتى أنزلهم الله وحفظ ذلك لهم الناس . .

الوصف الثالث :

قوله : أن العلماء يوغلون فى الإفتراضات والاحتمالات البعيدة[١] :

مناقشة الدجى :

وهذه صفة ذميمة ثالثة وصف بها العلماء من أنهم خياليون ويفترضون الافتراضات البعيدة ويحلمون ويتمنون كما وصفهم قبل ذلك . . ونحن نسأل الدجى هل وجد فى عهده نماذج لهؤلاء العلماء ؟ هل استقرأ الدجى سلوك العلماء وتتبع حتى ينتهى إلى هذه النتيجة ؟ ثم ما بال العلماء وحدهم هم الذين يفترضون ويحتملون الاحتمالات البعيدة ؟ أليسوا من جنس الناس يعرفون كيف يدبرون أمور حياتهم ؟ أم لأن العلماء بلغوا درجة من

(١) ص ٣٦ من الكتاب .

العلم تؤهلهم لأن يدخلون السوق التجارى بعد أن فهموا الحلال والحرام ؟ وما الذى يدعو العلماء أن يوغلوا فى الافتراضات وهم بحمد الله واجدون كل خير أمامهم من أمور النشاط الإقتصادى الطبيعى . .

الوصف الرابع :

قوله : إن بعض العلماء لايحافظ على الفضائل ويمارس الرذائل فيبتعد الناس عنهم ويلزمونهم بالانحراف[١] :

مناقشة الدلجى :

وهذه صفة وإن كانت ذميمة من بعض العلماء إلا أن هذا يقلل من شأن المسالك الرذيلة فى وضعه الإجتماعى لكنه لا يعنى بالضرورة أنه سبب من أسباب الفلاكة أى ليس سببا لتردى سلوكه المادى . . .

ولهذا قال الشاعر :

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم
ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهان ودنسوا
محياه بالاطماع حتى تجهما[٢]

(١) ص ٣٦ من الكتاب

(٢) هو القاضى عبد العزيز الجرجانى .

الوصف الخامس :

قوله : أن رواج العلماء لعلمهم كما أن رواج أرباب الحرف لحرفهم ...

العلم يغاير بقية السلع والبضائع فلا يمكن تحصيله إلا بعد فترات طويلة من العمر كما أنه شيء غير محسوس وقابل للجحود والتصنيع فكيف يتأتى معه الرواج والغنى »[1] .

تفسير ومناقشة :

نحن مع الدلجى أن العلم يحتاج إلى وقت طويل حتى يتيسر تحصيله ومن ثم يوصف بأنه عالم وهذا الوقت الطويل يضيع الفرصة على طالب العلم فى المال والتوفير التام له وليس كذلك الصنائع أو البضائع فإنها تدر عليه دخلا يوميا منذ معاناته لها . .

وإن كان لنا تعليق على ذلك فإنه : أن طالب العلم أثناء طلبه للعلم يتمكن أيضاً من السعى فى الأرض وطلب الرزق وللحاجة الماسة إلى ذلك ولترفع العلماء كغيرهم عن أن يسألوا الناس أو يسترزقوا عن طريق آخر سوى الطريق والكسب المشروع . .

(١) ص ٤٧ من الكتاب .

ومسألة أخرى أثارها الدلجى فى غاية الأهمية هى :

قلة الطلب على العـــلم :

تفسير ومناقشـــة :

ذكر الدلجى سببا هاما دقيقا من الناحية الاقتصادية وهو قلة الطلب على العلم بمعنى أن الإنسان يتوقف دخله على ما لديه من أموال من جهة على مقدار تكسبه بعمله من جهة أخرى . . وكلما كان هناك حاجة وطلب على هذا النوع من المال وهذا النوع من العمل كلما أثمر ونما . . ولزهد الناس فى خدمة القضاء والفتوى والتدريس ولقلة احتياجهم لهذه الخدمات فإن أصحابها لا تعظم ثروتهم ويعنى ذلك أن السلعة أو الخبرة لكى تروج ويترفع سعرها لا بد من أن تمثل حاجة قوية لدى الأفراد أى أن يكون لها سوق متسع وهذا كلام صحيح تماما من الناحية الاقتصادية لكن من الناحية المذهبية أو الشرعية يحتاج إلى نقاش على النحو التالى :

١ — علاقة الفقر والغنى بالعلماء « فى نظر الدلجى » :

لا يعنى ما نعيناه وما ناقشنا به الدلجى حول وصفه العلماء بالفقر . فالعلماء فقراء فى أغلبهم ولكن الذى ننفيه ولا يتفق مع الدلجى هو ما ألصق به العلماء من هذه الصفات أو هو ما استلزمته هذه الصفات على اعتبار أن الدلجى ذهب إلى أن أغلب من يلصق به الفقر هم العلماء . .

ولم يشأ الدلجى أن يقف عند هذا الحد فى تناوله لمسألة العلم والعلماء

(٢) ص ٤٧ من الكتاب .

وعلاقتهم بالغنى والفقر فقـــد قدم دراسة جيدة تكشف عن العلاقة التاريخية بين العلم والغنى والفقر على مر العصور منـــذ بداية الدعوة الإسلامية وحتى عهده ..

ومن خلال هذه الدراسة استطاع أن يبرهن على صدق نظريته من أن العلم والمعرفة شأنهما شأن بقية السلع والخدمات تروج وتنفق كلما اشتدت الحاجة والطلب عليها وتبور وتكسد بقلة الطلب عليها ..

ففى العصور الأولى كانت حاجة الناس إلى العلماء أشد من حاجتهم إلى الحاكة من الباعة والصناع وكان الأمراء والحكام هم أكثر الناس حاجة إلى العلماء ومن ثم أجزلوا لهم العطايا والمكافآت ، وفى ضوء ذلك انتشرت العلوم ودونت المعارف وألفت الكتب فى العديد من الفروع المختلفة من المعرفه . وترجع حاجة الحكام إلى العلماء لما هم متمسكون به من الشريعة والشريعة تشمل علوما عديدة خادمة لها . . .

ثم بعد ذلك فتر الحماس للشريعة وبدأ الحكام يبتعدون عنها رويدا ورويدا ويستغنون بأفكارهم وعقولهم وما يرونه من سياسات الأمر الذى معه قلل شأن العلوم المختلفة ولم يبق من العلم سوى رسومه ومعاهده ومبانيه.. واختفى المعنى وحل محله المظهر[١] ..

مناقشـــة :

هذا الذى سقته الآن ملخص بتصرف لنظرية الدلجى حول فلاكة العلماء وفقرهم وأن سببها قلة الطلب عليهم فهل هذا صحيح ؟

(١) ص ٤١ من الكتاب .

فى هذا المقام لا يفوتنا أن نثير بعض التساؤلات إذ يفهم من كلام الدلجى أن العامل الاقتصادى أو المادى أو المالى لعب دورا كبيرا فى نشر العلم والمعرفة فى ربوع الأمة الإسلامية بل إنه كا — حسب كلام الدلجى — أحد الحوافز الرئيسية الكبرى على ذلك . .

ولا شك أن القول بذلك يوقعنا فى حرج كبير تجاه علمائنا الأفاضل لأننا نعلم يقينا أن الكثير منهم بحمد الله إنما ألف ما ألف ودون ما دون حسبة لله تعالى وليس فى ذهنه من قريب أو بعيد جوائز الحكام ومكافآتهم وحيازة الأموال ، وإنما كان همهم الأكبر الحفاظ على الشريعة والعمل على نشرها فى الآفاق . .

ومع ذلك فإن النواحى السياسية ومواقف الحكام من تقدير العلم والعلماء ولا يمكن إهمالها فى النهضة العلمية . . . فإن تشجيع بعض المذاهب الفقهية مثلا كالمذهب الحنفى فى عصر الرشيد فى الشرق والمذهب المالكى فى المغرب جعل أكثر طلبة العلم يتجهون إلى التمذهب بهذا المذهب ومن ثم كثر التأليف فى الفقه المذهبى ومع ذلك فالاتجاه إلى المذهب شىء واتجاه العلماء لى التكسب من وراء اتباع المذهب شىء آخر . .

وما ذكره الدلجى من حالات لبعض لبعض طلبة العلم فإنها حالات فردية لا ترقى إلى أن تكون نموذجا لطلبة العلم والعلماء فى ورعهم وزهدهم على اختلاف معارفهم وإن قراءة متأنية لكتب التراجم لتبين فضل العلماء وما هم عليه من ورع وزهد لتجافى عن الدنيا ولك أن تقرأ سطورا من حياة الخليل ابن أحمد أو غيره من العلماء الأفذاذ لتجد تأييدا ما نقول . .

والذى نخشاه أن يكون ما قاله الدلجى يتخذ سلما وطريقا للمبغضين

للاسلام وأهله من أولئك النفر الذين اهتموا بالإسلام من الغرب أو الشرق وسموا أنفسهم بالمستشرقين فكتبوا تاريخ العلماء المسلمين لا حبا لهم بل حبا للدس على الإسلام والطعن على العلماء من خلال بعض التصرفات الشاذة التى لا تصل إلى مرتبة مجتمع العلماء لأنها حالات فردية وسلوك شخصى خاص لهذا العالم فلا يجب أن يحكم على العلماء من خلال شخص أو أشخاص . . وخشيتنا أكثر أن يصدق أبناء الإسلام والمسلمين وخاصة منهم من يرضعون ومنهم ما يقوله أولئك الأفاكون فاسدى الطوية من الغرب والشرق والكافر فيصبح علماؤنا ألهية لأولئك الفسقة نتيجة حالات شاذة . . ولقد قال بعض من لا يستحى من الله فى الصحابة ما قال حول أن من أهم أهداف جهادهم هو العامل المادى نقلا عن أساتذه الغربيين[١] . . وليس لنا تعليق على نزاهة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا على العلماء العدول الذين حملوا العلم من بعدهم وفيهم القرون الثلاثة الخيرة الأولى شهد لهم المصطفى صلوات الله وسلامه عليه بالخيرية . .

٢ — هل يتخذ العلم حرفة وأداة للتكسب :

والواقع أن العلم وأخذ الأجر عليه لا بأس به إن شاء الله وقد قال عليه السلام (إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله)[١] . وقد أخذ الصحابة الأجرة فى الرقية بكتاب الله وأقره المصطفى عليه السلام على ذلك بل وطلب منهم أن يعطوه من اللحم الذى أخذوه من المريض والمدرس

(١) هو المؤرخ المصرى المسلم الدكتور أحمد الشامى فى كتابه « الخلفاء الراشدين » .

(١) تقدم تخريجه .

وطالب العلم كغيره يبيع منفعته ولكنه لا يتخذها سلعة يتاجر بها ويزايد وينقص من أجلها ، ولا شك أن القضاة من طلبة العلم ومع ذلك يأخذون رزقا على ولايتهم القضاء وكذلك المدرسون فإنهم قد قصروا منفعتهم على الجلوس للعلم وتفرغوا له عن أى عمل آخر كما وافق الصحابة على أن يعطوا أبا بكر الصديق رضى الله عنهم جميعا رزقا من بيت المال فى مقابل منفعته وولايته على المسلمين وهو أفقه الناس وأعلمهم . .

وليس فى ذلك حرج إن شاء الله ولكنه ينبغى أن يصون العالم نفسه وعلمه ويجعله محل الاحترام وقد ثبت تولى العلماء لوظائف كثيرة كأبى يوسف القاضى رحمه الله الذى تولى وظيفة كبير القضاة فى عهد هارون الرشيد وكذلك غيره من العلماء وإلى الآن لا يزال العلماء يتولون مناصب قيادية فى الدولة ويتكسبون بعلمهم ما يكفون به وجوههم من السؤال للناس ويغنيهم عن الآخرين فلهم حق فى بيت المال كغيرهم وهم لا يأخذونه دون مقابل حيث يقدمون منفعة للمسلمين وقل مثل هذا فى من يتولى أى عمل من العلماء تدريسا أو قضاءا أو حسبة أو من يؤلف مؤلفاته أو يكتب المصحف أو نحو ذلك ويبيعها فهذا أمر قرره العلماء ولم يروا به بأسا . .

وإننا نوافق الدلجى على أن نسبة الفقر فى العلماء أكثر من غيرهم ولهذا حين اختار التراجم منهم فقد أحسن إلا أنه مع ذلك لا يوافق على الأسباب التى ذكرها كالزهد وشغلهم بالعلم نفسه فإن العلماء ليسوا كلهم من الزهاد فالزهد فى الحقيقة ميل وسلوك معين يسلكه

الصالحون وعلى رأسهم العلمـــاء فهو تقلل من الدنيا ودروع لا بغضا للمال ولا رغبة عنه ولكنه الأخذ بالقليل الأقل حتى تصفو نفوسهم وتتفرغ للعلم وقد أثر عن بعضهم أنه قال « لو كلفنى أهلى بشراء بصلة ما حفظت من العلم شيئا » ، فالتفرغ للعلم التفرغ الكامل والزهد جعلهم فى مصاف المفلوكين اختيارا لا اضطرارا وهذا هو المهم فى الأمر فإن أغلب الفقـــراء فقرهم عن قل رغم طلبهم فهذا ما قسم الله لهم ..



سبــــق علمى

« الوصايا » « التوصيات »

ويختم الدلجى كتابه هذا بالتوصيات التى أراد أن تكون نصيحة جيدة للمفلوكين وخرج بها على هيئة توصيات كمــا تفعل المؤلفات الحديثة والأكاديمية منها بصفة خاصة سابقاً بها منذ مئات القرون الباحثين . .

وأشير هنا إلى أهم الوصايا أو التوصيات كما نسميها فى العصر الحاضر وخاصة منها ما يتعلق بالناحية الاقتصادية .

قال الدلجى :

بعــد أن قدم مقدمة طيبة لوصاياه من وجوب وملاحظة المفلوك الأخذ بهــذه الوصايا (وقد وضعت العناوين الجانبية من عندى استكمالا للفائدة ولفتا القارىء وتنبيها له :

(أ) عزاء ومواساة :

اعلم بأن الكمالات النفسانية لذتها تزيد على اللذات الجسمانية »[1] .

مناقشة الدلجى :

ولو أن الدلجى وقف عند هذه الموعظة والوصية الجميلة لما احتجنا إلى مناقشة حولها ولاندرى هل يسلم الفقراء بذلك فإن فراغ الجيب وصفر

---

(١) ص ١٤٢ من الكتاب .

اليد مشكلة تشغل باله ولو تعزى بطلب العلم فإنه دائماً مشغول البال مهموم لا يدرى كيف يدبر أموره المعاشية وخاصة إذا كان يعول أسرة . . ونعود إلى الدلجى لنرى تناقضه فبعد عدة توصيات يقول للفقير (اعلم بأن جزءاً واحداً من المال خير من أجزاء كثيرة من الكمالات النفسية[1] . . ويقول مرة أخرى (لله در من سمى المال كمال الكمالات)[2] أليس هذا تناقض فكيف يطلب من الفقير التسامى والعزاء بالكمالات النفسية ثم يقال له مرة أخرى (إن الكمالات النفسية . . ثم بعد ذلك التأكيد على صدق المقولة « إن المال هو كمال الكمالات » . .

ونحن لا نتفق مع الدلجى فى أن المال خير من الكمالات النفسية لأن المال خادم وقنطرة ومعبر للوصول إلى الجمال والكمال النفسى وليته توقف عند وصيته الأولى لكان للمفلوك تسلية وعزاء ... ولكن هل نعتذر للدلجى بأنه بما يهدف أن هذه النظرة نظرة المجتمع فى غالبيته مهما كانت نظرة ذات مبالغة وظلم للجمال والكمال النفسى . .

(ب) عزاء آخر :

(إن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب وإن الدين لا يعطيه إلا من يحب) وهذا جزء من حديث نبوى شريف أورده الدلجى كاملا مشيراً إلى الأنبياء لم يورثوا سوى العلم فلم يورثوا الدنانير ولا الدراهم . . (ويقول فاشتغل بالعلم فليس فوق العلم لذة وهو شاغلك عن كل شىء)[3] ، (ثم سع الناس بأخلاقك ومعارفك إذا لم تسعهم بمالك ومعروفك)[4] ، وهو أيضاً

(١) ص ١٤٣ من الكتاب .
(٢) ص ١٤٣ من الكتاب .
(٣) ص ١٤٣ من الكتاب .
(٤) ص ١٤٣ من الكتاب .

يشير إلى حديث آخر يقول عليه السلام (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن سعوهم بأخلاقكم)[١] . .

والدلجى هنا يصر على الفقر ملازما للعلماء والعلم وقد بينا خطأ هذه النظرة والاتجاه فإن الفقر والغنى ظاهرتان لا يختص بهما أحد عن أحد بل إن العلماء أكثر تعرضا للغنى من غيرهم لما يلاقون من فرص سانحة لهم ولن نقتصر على علماء الشرع فنحن نشير إلى أى علم دينى أو دنيوى حتى يدخل فى ذلك كل خبير فهم أكثر الناس غنى فى كل المجتمعات وعلى مر العصور وما فلاكتهم الواردة عليهم إلا مجرد اختيار منهم ورغبة فيما عند الله تعالى فبهذا اشتغل الفقير أو المفلوك بالعلم فإنه لا شك واجد الغنى والخير والخروج من الضائقة المادية . .

(ج) الاستهانة بالدنيا :

يقول الدلجى (كن شديد الاستهانة بالدنيا ضرا ونفعا عطاءا ومنعا حصولا وفواتا)[٢] ، ونحن مع الدلجى فى هذه النظرة والوصية الثمينة فإن قليل المال إن لم يشغل خاطره كثيرا بالتفكير فإنه سرعان مايبحث عن عمل ومورد أما إن اشتغل خاطره بالتفكير وتشوش عليه الأمر فقد يتحول إلى حقد على المجتمع وتمنى زوال النعمة على الآخرين دون أن يخدم نفسه بدينار واحد بل قد يصل إلى اليأس واتهام نفسه بالعجز فمن لم يستعبده الدينار والدرهم فلن يعبأ كثيراً بقضية الغنى والفقير بل يكون شخصا عاديا إن حصل له المال أنفقه فى وجهه وإن لم يجده لم يتحسر على ذلك

(١) أخرجه : البزار وأبو نعيم فى الحلية والحاكم والبيهقى فى شعب الإيمان : انظر : الفتح الكبير جـ ٤٣٣/١ .

(٢) ص ١٤٣ من الكتاب .

فبهذا يريح نفسه من عناء موازنة نفسه بفلان أو بفلان من الناس ومن النظر إلى مما فى جيوب الآخرين « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله »[١] . .

(د) أنزل حاجتك بالله :

وهذه من أثمن الوصايا للفقير والغنى على حد سواء فالناس جميعا فقراء إلى الله محتاجون إليه فى كل لحظة فإن نزل بالمسلم ضائقة فإنه ينزلها بالله وسرعان ما تفرج يقول الدلجى (أكثر من دعاء الله وأنزل حاجتك به يقول صلى الله عليه وسلم (الظوا بياذا الجلال والاكرام)[٢] ويقول جل شأنه « قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم »[٣] . . ثم يقول (إياك والتعويل على واحد بخصوصى من البشر والغاء الشراشر عليه فإن من أبقى شراشره على غير الله وكله وما اختاره لنفسه)[٤] والله جل شأنه يقول « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين »[٥] . .

ومع ذلك فإن إعلام المسلمين بحاجة الفقير أمر لازم خاصة إذا لم يعلموا بحاله وفعل السبب جائز شرعا فالفقير إذا طلب حقه من الزكاة لدين نزل به أو دم موجع أو فقر مدقع كما ورد فى الحديث الذى رواه قبيصة بن المخارق « يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لثلاثة » ... ...)[٦] . .

---

(١) سورة النساء : آية ٥٤ .
(٢) المسند للامام احمد ٤/١٧٧ .
(٣) سورة الفرقان : آية ٧٧ .
(٤) ص ١٤٣ من الكتاب .
(٥) سورة غافر : آية ٦٠ .
(٦) مسلم ٢/٧٢٢ ـ أبو داود ٥/٨٨ ـ النسائى ٥/٨٨ ـ مسند أحمد ٣/٤٧٧ .

(٥) لا تيأس من روح الله:

وصية نفيسة للفقير (إنه لا ييأس من روح الله القوم الكافرون)[1] فإذا كان الله إبتلاك بنقص فى المال فلاختيارك وإمتحانك هل تصبر وترضى وتسلم بما قسمه الله لك أو تيأس وتقنط وتخرج بهذا إلى مالا يليق بالمسلم، وهو معارضة حكم الله تعالى (فمن رضى فله الرضا ومن سخط فعليه السخط) . .

ولا شك أن اليأس يقتل المواهب يكبت الحافز ويجعل الفقير مجرد إنسان كم مهمل لا يستفاد منه تلعب به الوساوس وتبعث به الأوهام وتناغيه الأمانى الكاذبة والأحلام الفارغة وليعلم الفقير أن الله الذى أعطى الغنى المال قادر على أن يمنحه أكثر منه ولكن كان عليه أن يصبر وينتظر ولا يجعل اليأس له مصاقبا ومصاحبا ورفيقا فإنه لن يحصل على شىء من المال إذا كان الله لم يكتب له ولن يرد رداً إذا كان الله قد كتبه له . . . .

فإن اليأس والحالة هذه وصول إلى طريق مسدود وسلبية تامة لا تفيد الفقير بشىء سواى التحسر ولن يغير تحسره من الأمر شيئا . .

والبديـــل :

١ ـــ لا تكن كلا بل متحركا كيسا .

٢ ـــ رقع عجزك وفلاكتك بحيلتك ومصابرتك .

٣ ـــ عليك الوثوب عند الفرصة .

---

(١) سورة يوسف : آية ٨٧ .

٤ — ولا تيأس من روح الله[١] . .

أربع وصايا للمفلوك تجعل منه رجلا نافعا فى المجتمع بعد أن ينفع نفسه والساعى دائما لن يخيب الله سعيه ولئن فشل فى الأولى فلن يفشل فى الثانية واهتبال الفرصة أمر ضرورى ومطلب يذيف أن لا يضيع فى ثنايا تشاؤم الفقير ويأسه فكم فرصة يضيعها الفقير وغيره ولا تعود أو لا يعود مثلها . .

وليس من شأن الفقير أن يلوم الآخرين وهو لا يفعل شيئا فالسماء لا تمطر ذهبا ولا فضة » ولن ينزل المن من السماء على العاطلين فلا بد من الحركة و الكياسة فى الحركة أيضا فليست كل حركة ناجحة فالتحرك الأهوج الأحمق لا يفيد شيئا بل لا بد من تحرك مدروس واضح يستشار فيه ذووا الخبرة والكياسة والسابقون للفقر . . . وعموما ففى الحركة بركة « وما التوفيق إلا بيد الله » فعليه التوكل . . . .

---

(١) ص ١٤٤ من كتاب الصعلكة والمفلوكون .

الفهـــارس



فهرس الآيات القرآنية

مرتبة حسب ورودها فى البحث

الآية	رقمها	السورة	الصفحة
— وما أوتيتم من العلم إلا قليلا	٨٥	إبراهيم	
— وآتوهم من مال الله الذى آتاكم	٣٣	النور	٣٧
— وأنفقوا مما رزقناكم . .	١٠	المنافقون	٣٨
— وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين	٣٩	سبأ	٣٨
— الله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم	٧١	النحل	٤٠
— فأما من أعطى واتقى وصـــدق بالحسنى فسنيسره لليسرى	٥،٦،٧، ٨،٩،١٠	الليل	٤٨
— وفى السماء رزقكم وما توعدون	٢٢	الذاريات	١٢١
— وأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرين	٧٨	يوسف	١٤٨
— ولا تزر وازرة وزر أخرى	١٦٤	الأنعام	٣٨
— كل امرىء بما كسب رهين	٣١	الطور	٣٨
— يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله	١٥	فاطر	٣٩
— وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام	٨	الأنبياء	٣٩
— أن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله	٣٢	النور	٣٩
— أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحيـاة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخـــريا ورحمة ربك خـير ممـــا يجمعون . .	٣٣	الزخرف	٤١

فهرس الأحاديث

مرتبة حسب ورودها فى البحث

عدد	الحديث	الصفحة

فهرس المراجع

(مرتبة على حروف المعجم)

* القرآن الكريم .

١ — الإسلام والإقتصاد / د . عبد الهادى النجار / سلسلة عالم المعرفة بالكويت عام ١٩٨٥ م .

٢ — الإسلام والتنمية الإقتصادية / طبع دار الفكرى العربى — طبعة أولى سنة ١٩٧٩ م — القاهرة — للدكتور شوقى أحمد دنيا .

٣ — الاكتساب فى الرزق المستطاب / للامام محمد بن الحسن الشيبانى - تحقيق د . سهيل زكار — مكتبة الثقافة الإسلامية — ١٩٣٨ م دمشق .

٤ — تاريخ بغداد — للخطيب البغدادى — القاهرة — مكتبة الخانجى — سنة ١٩٧٩ م .

٥ — التراتيب الإدارية — لعبد الحى الكنانى — بيروت — محمد أمين — (د . ت) .

٦ — تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج / لابن الملقن / تحقيق ودراسة عبد الله ابن سعاف اللحيانى — دار حراء للنشر والتوزيع بمكة المكرمة — طبعة أولى عام ١٤٠٦ هـ — ١٩٨٦م .

٧ — التلخيص الحبير فى تخريج أحاديث الرافعى الكبير / لابن حجر العسقلانى — تحقيق د . شعبان محمد إسماعيل — مكتبة الكليات الأزهرية — ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩ م — القاهرة . .

٨ — جامع العلوم والحكم شرح الأربعين النووية — لابن رجب — نشر دار الإفتاء السعودية — (د . ت) . .

٩ — حلية الأولياء — الدار السلفية — بيروت — (د . ت) .

١٠ — الدارس فى أخبار المدارس — للنعيمى — مطبعة الترقى بدمشق — سنة ١٣٦٧ هـ . .

١١ — دلائل النبوة / للبيهقى / وثق أصوله وخرج حديثه وعلق عليه / د. عبد المعطى قلعجى / دار الكتب العلمية — بيروت لبنان — طبعة أولى ١٩٨٥ م ١٤٠٥ هـ —.

١٢ — الزهاد الأوائل — د ، مصطفى حلمى / دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع طبعة أولى — الاسكندرية — محرم ١٤٠٠هـ — ديسمبر ١٩٧٩م . .

١٣ — زاد المسير فى علم التفسير — لابن الجوزى — طبعة أولى — بالناشر — المكتب الإسلامى ببيروت — ١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م . .

١٤ — شفاء العليل فى القضاء والقـــدر والحكمة والتعليل — لابن قيم الجوزية .

١٥ — صحيح ابن حبان / للأمير علاءالدين الفارسى — قدم له كمال يوسف الحوت — دار الكتب العلمية — بيروت — لبنان —(د.ت) . .

١٦ — ظلام من الغرب — لمحمدالغزالى — مصر — دار الفكر١٩٧٥م . .

١٧ — فيض القدير شرح الجامع الصغير / للمناوى / المكتبة التجارية الكبرى — مصر ١٣٥٧ هـ . .

١٨ — كتاب الروح — لابن القيم الجوزية — دار الفكر للنشر — عمان سنة ١٩٨٥ م .

١٩ — كيف عالج الإسلام مشكلة الفقـــر / د . يوسف القرضاوى —

الناشر الدار القومية للطبع والنشر - بيروت - الطبعة الأولى ١٣٧٦ هـ - ١٩٦٦ م ..

٢٠ - الكتب الحديثية الستة .

٢١ - مقالة للدكتور محمد صالح فى الفكر الإقتصادى العربى فى القرن الخامس عشر الميلادى

٢٢ - المستدرك للحاكم النيسابورى - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت (د . ت) ..

٢٣ - موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان - المطبعة السلفية ومكتبتها - مصر (د . ت) .

٢٤ - مسند الإمام أحمد - المكتب الإسلامى للطباعة والنشر ودار صادر - بيروت (د . ت) ..

٢٥ - مقامات الحريرى - المكتبة التجارية الكبرى - شارع محمد على بمصر - (د . ت) ..

٢٦ - المجموع شرح المهذب - للامام النووى - مطبعة الامام - القاهرة - (د . ت) .

٢٧ - موسوعة الإقتصاد الإسلامى - للدكتور عبدالمنعم الجمال - دار الكتاب اللبنانى - دار الكتاب المصرى - ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م..

٢٨ - المفردات للراغب الاصفهانى - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان - تحقيق محمد سيد الكيلانى (د . ت) ..

٢٩ - الفتح الكبير فى ضم الزيادة إلى الجامع الصغير / جلال الدين السيوطى - دار الكتاب العربى - بيروت - (د . ت) ..

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع ٧٧٩٠ / ١٩٩٢







